اقرأ

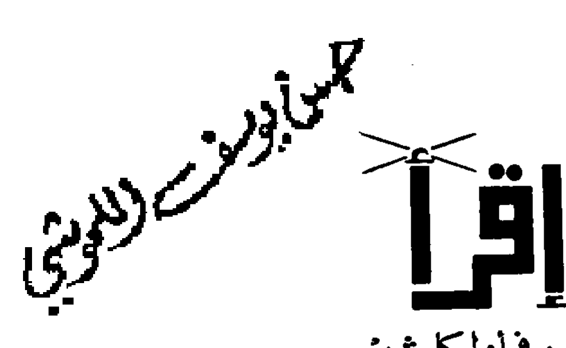
# صور باريسية



يوسف فرنسيس

دار المعارف بمصر

٦




تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير : عادل الغضبان






يوسف فرنسيس

# صور باريسيّة



اقرأ ٣١٧
دار المعارف بمصر

اقرأ ٣١٧ – مايو سنة ١٩٦٩

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م




# الفصل الأول



# معرض البشر

السلم طويل . . والحجرة ضيقة . . ولكن لا بأس . . لقد أقنعت نفسى بأن الحجرة فوق السطح قد تتيح منظراً ف يداً . . وفتحت النافذة أطل على المدينة التى جئت أقضى بها شهراً . . وهرب من عينى اللون . . بل يبدو أنه هرب من المدينة كلها . . فقد غرقت فى الضباب . . وانتصبت أطراف أشجارها التى غسلتها الأمطار لتمد فروعها إلى السماء كأصابع مستجدية . .

وبدت لى باريس متجهمة ، صامتة ، حزينة ومنطوية على نفسها . . وحولى كانت أسطح البيوت تتتابع فى ملل لتذوب فى السماء . . . مليون بيت . . . تضم ٥ ملايين نسمة . .

وأحسست فجأة أنى غريب . . وحيد . . ومتطفل :

غريب . . . لأنى ابتعدت أميالاً عن بلدى . . .

وحيد لأنى جئت باريس وليس لى فيها أصدقاء . . .

ومتطفل لأن أول ما وضعته فى حقيبتى قبل أن أسافر رزمة كبيرة من الورق الأبيض وقلم للكتابة وفرشاة للرسم !

ولأن أول ما فعلته عندما وجدت حجرة فى فندق أن فتحت نافذتها وفتحت عينى أتطلع وأتلصص فى حماس الطالب الذى

ما تكاد أسرته تنتقل إلى الحى الجديد . . حتى يسرع إلى النافذة باحثاً عن بنت الجيران . . .

وأول ما تعلمته ساعتها أن باريس تحسن غلق نوافذها وتجيد أيضاً إحكام الستائر . . لا أحد يتطفل على الآخر . . فكل إنسان مشغول بنفسه . . وكصحفى تغرينى الهمسات وراء الستائر . . وكرسام أحب أن أمد بصرى أتحسس الوجوه من بعيد أحاول من خلالها أن أرسم صورة حقيقية . . للبشر . .

وتلفت إلى البيوت مرة أخرى . .

وامتعضت . النوافذ – كل النوافذ – مغلقة . . ما عدا نافذتى . .

لقد أحسست أن باريس تخفى نفسها عن عينى . . تدخل داخل نفسها وتتحدانى . . .

وقبلت التحدى . . فأغلقت نافذتى . . ونزلت إلى الشارع . .

ذبت وسط الزحام . . سرت مع آلاف الأرجل التى تتحرك فى عجلة وسط السيقان الرشيقة التى تطل من معاطف المطر . . والأقدام النشطة التى تبتلعها أنفاق المترو . . ولا تتوقف إلا لثوان معدودة عندما يتوقف أصحابها لشراء صحيفة أو تذكرة أو لعناق عابر . .

والوجوه فى الزحام تتحرك لتضيع ملامحها فى زحام الأجناس إن باريس التى تستقبل ٢ مليون زائر قد أصبحت معرضاً . . للبشر . . فأطراف الأرض تلتقى كلها فيها . . وتتعانق الألوان



المتناثرة . . الأبيض والأسود . . الفتاة الشقراء الآتية من السويد والفتى الأسود المولود فى جنوب أفريقيا يسيران جنباً إلى جنب يلتصقان . . وفى ركن المقهى يتعانقان ويرسمان صورة الحب والسلام فى الورقة البيضاء أمامى . . ثم ينهض الشاب وتنهض الفتاة يتبادلان قبلة أخيرة . . و يدها تترك على المائدة ثمن فنجال القهوة . . . ويده تترك ثمن فنجال الشاى . . إنها طالبة تدرس الفنون الجميلة وهو طالب يدرس الطب . . ومواردهما قليلة . . كل واحد يدفع لنفسه طلباته ، أما باريس فتدفع لهما ثمن الحب فقط . . تخلق حولهما جواً من السحر ، ولا ترسم حولهما علامة استفهام أو تضع علامة تعجب فى مواجهة حبهما . . كما لا يعنيها أن تعطى علاقتهما اسماً . . ولا يهمها أن تصنفها . . رغبة . . حب . . علاقة جسدية . . الأمر سيان .

وتتحرك كتلة البشر . . بعشاقها . . . وعمالها . . . وطلبتها . . .

وزحام باريس زحام له لون ورائحة خاصة . . إنه يختلف عن زحام أى بلد آخر . . كأنها تلمس الذين يقفون على أرضها بعصى سحرية تضفى عليهم طابعها وتصبغهم من الداخل أيضاً . .

لقد رأيت . . رجلاً . . أمريكياً . . يشترى « بارى ماتش » وهو لا يستطيع أن يقرأها . . ولكن رغم ذلك يشتريها لأنها المجلة التى تقرأها باريس . . .

ويابانياً قصير القامة يتأبط ذراع امرأة فى ضعف طوله ، يترك وقاره التقليدى ، يضحك بصوت عال ، ويغمز بعينيه

كما يفعل الفرنسيون !

وفى ركن شارع ضيق متفرع من سان جرمان فتح أحد الهنود متجراً للتوابل والعطور الهندية . . يتهافت عليه الجميع . . . وعندما التقينا وصافحنى عند الخروج لاحظت أن يدى قد غرقت فى رائحة « تاباك » أشهر عطر فرنسى للرجال .

إن باريس أحسن مضيفة ، تعرف كيف تجعل ضيوفها يحسون أنهم أصحاب الدار . . وتعرف كيف توفر لكل ضيف جوه الملائم . . وتعرف أيضاً كيف تشكل نفسها وتلون وجهها بألف لون . . . ولكن مقدرتها العجيبة على أن تكون نفسها فى النهاية هى معجزتها الكبرى . . .

إنك تستطيع أن تتناول البيتسا وتعيش فى الجو الإيطالى مع طبق الأسباجيتى . . . وتستطيع تناول العشاء فى مطعم صينى . . أو . . يابانى أو . . هندى . . والطائرات تنقل إليها المأكولات الشعبية من أطراف البلاد المختلفة ورغم ذلك . . فالزائر بعد الأسبوع الأول يعشق طبق شوربة البصل الفرنسى رغم قبح طعمه !

تماماً كما تستهويه . . بنت باريس الوجودية . . بالبلوزة السوداء والجونلة القصيرة ويفضلها على أى جميلة أنيقة شقراء كانت أم سمراء . .

إن معرض البشر الذى ينعقد فى شوارع باريس ، يتغير ويتجدد كل يوم . . . بل كل ساعة . . . هو جزء حيوى

من سحرها وشبابها فهو الذى يقتل الملل . . .

والزائر يقف يتأمل الناس حوله ويهمس . . . ما أشد الزحام . . . وما أغرب هؤلاء البشر . . . وينسى أنه قد أصبح هو نفسه جزءاً من هذا الزحام ولعله قد أصبح أغرب ما فى هؤلاء البشر !

فباريس ترحب بالجميع . . . وهى دائماً تترك لك مكاناً فى زحامها . . وتعطيك الإحساس بأنك اللون الذى كان ينقص اللوحة الكبيرة !

وما أكثر الذين أعطتهم باريس الإحساس بأن مكانهم على أرضها أو بالقرب منها . . مثل الغانية التى تبتسم فيعتقد الرجال أن ابتسامتها بطاقة دعوة مفتوحة . . وهى فى الواقع تبتسم إعجاباً بنفسها ولنفسها فقط !

ولعل هذا هو السر فى أن بعض الرجال يتحدثون عنها كامرأة ، منتشين بسحرها ، وثقافتها ، أو شاكين عبثها وإعراضها ! . .

ـ لقد خدعتنى ! . . .

قالها لى « جونى » عندما سألته ما الذى جاء يصنعه فى باريس وجونى جارى فى الفندق ، التقينا على السلم أكثر من مرة وكل واحد فينا يحاول أن يخفى تعبه من الدرجات المتعبة ، وفى المرة الأخيرة سلمنا بالأمر الواقع ، وتركنا اللهثات تسبق حديث البرد الذى يصلح عادة كتمهيد لأى تعا ف !

وكان جونى يريد أن يتكلم ، بعد أن استنفدت باريس نقوده وصبره واختارت له هى الطريق . .

لقد جاء من نيويورك وقد ملأ حقيبته بمجموعة هائلة من تصميمات الفساتين معتقداً أنه سيصنع بها مجده فى باريس . . فذوقه مبتكر . . وخطوطه حساسة . .

ولف على بيوت الأزياء بيتاً بيتاً . . وفى كل مرة كانوا يستقبلونه بابتسامة واسعة ويقودونه فى رفق إلى باب الخروج ! . .

وسألته . . .

– إذن . . . كيف تعيش ؟ وكيف تدفع حساب الفندق؟!

وكان رده مقتضباً :

– كانت آخر محاولاتى موفقة . . لقد عرضت رسومى على صاحبة بيت جديد من بيوت الأزياء فى الشانزليزيه ولم ترحب المرأة كثيراً برسومى . . ولكننا نتعاون معاً فى الحب ، والحياة !

وقال « جونى » جملته الأخيرة فى ابتسامة هادئة بلا خجل .

كأنه يقرر أمراً مألوفاً . . أو يتحدث عن وظيفة رسمية أجرها يستعين به على مواجهة الحياة !

– ورسومك ؟ . .

وفتح « جونى » حقيبته وأغرق الحجرة بالرسوم وهو يقول ضاحكاً :

– لم تعد ذات أهمية الآن . . تستطيع أن تختار منها ما يعجبك لو أردت !

وهناك عشرات . . بل مئات مثل جونى . . من إيطاليا واليونان . . وبلاد العالم . . . وكل واحد منهم جاء باريس وفى ذهنه مشروع للمستقبل وفى حقيبته رسومه أو قصصه . . فيجد نفسه نسخة مكررة وطبعة مستهلكة قديمة . .

فإما أن يعود أعقابه . . أو يقبل الشروط التى تمليها عليه باريس . . كأن تصرف عليه امرأة أو يتصعلك أمام الحانات ومعه مجموعة من الصور .. العارية .. أو يقف مفتعلاً الخشوع أمام الكنائس وقبعته فى يده . . ليبيع الصلبان والصور الدينية !

ولقد رأيت شاباً يطارد أحد السياح . . عرض عليه صور الكنائس والقديسين . . ثم صور اللوفر ولوحات الفنانين . . وفى كل مرة كان السائح يهز رأسه فى ضيق . . ولم ييأس الشاب . . أخرج من جيب معطفه الداخلى مجموعة من صور الحب المثيرة . .

ووقف السائح . . . وبدأت عملية البيع والشراء !

* * *

والذين نجحوا فى باريس . . هم الذين عرفوا الطريق إلى عقلها . . . فقلبها وهم تعطيه للجميع . . .

أما عقلها فهو الطريق الذى وصل عن طريقه الأذكياء . .

إن الذين تسلط عليهم الأضواء فى هذا المعرض الهائل من البشر . . هم الذين يملكون شيئاً جديداً . . شيئاً يستطيع إدهاش باريس أو إثارة اهتمامها .

أسلوباً جديداً فى الفن . . لم يطرق من قبل ، ولم تعرفه جدران المعارض ، يستطيع أن يقنع إحدى صالات العرض فى « سان جرمان » باحتضان أعمال صاحبه . .

كتاباً مثيراً . . لا يهم عمر مؤلفه . . المهم هو أن تتحمس له دار نشر . . و يجده أحد النقاد يستحق أن يمتدحه أو يهاجمه . . .

وهذا هو ما صنعته فرانسواز ساجان عندما اقتحمت مجال الأدب . . . فقد عثرت على الناشر أولاً . . . ثم كان لها الحظ أن تجد نوعين من النقاد فى خدمتها : الذين يمتدحونها والذين يهاجمونها ! . . .

ولمع اسم « فرانسواز ساجان » . . وظهرت بعدها عشرات الأسماء الجديدة ، تحاول أن تقلد أسلوبها . . . بعضها فشل و بعضها ما زال ينتظر فرحة النجاح . .

قالت لى صاحبة إحدى المكتبات الكبيرة فى « سان جرمان » وهى تشير إلى تلال الكتب التى تملأ المكتبة وتغرقها حتى السقف :

« . . . إن الذى يريد أن يرى له كتاباً وسط هذه الكتب . . . يجب أن يجد شيئاً جديداً يقوله و يتأكد فى نفس الوقت أن هذه الكتب خالية منه .

ونجاح فرانسواز ساجان استمد وجوده من تقديمها لوجهة نظر جديدة فى علاقة الرجل بالمرأة . . . » وابتسمت قبل أن تضيف :

« وفى الواقع ليست وجهة نظر جديدة علينا نحن النساء .. ولكن لم تظهر واحدة لتعبر عنها كما فعلت ساجان فى « مرحباً أيها الحزن » بدليل أن كتبها الأخرى لم تصادف نجاح هذا الكتاب .

.. لا لأنها أقل جرأة ولكن لأنها لم تعد تحمل جديداً ... »

والذين اكتشفوا أهمية « الجديد » وحاولوا أن يختلقوه .. تركتهم باريس يرتدون أقنعة التجديد ويقومون بأدوارهم حتى النهاية ثم كشفتهم فى قسوة ! . . .

فالتراث الأدبى والفنى الواسع الذى تستند إليه فرنسا لا يذبح بسهولة تحت أقدام الدجالين من أدعياء الفن والأدب..

والذى يريد أن يخطو خطوة خارج زحام البشر ويرفع رأسه لتسقط عليه الأضواء . . يجب أن يتمتع بمقدرة قوية على الإقناع بأن ما يقدمه هو شيئاً أصيلاً وجديداً تضيفه باريس إلى جعبتها . . وتقدم له فى المقابل مكاناً خاصاً بالقرب من قلبها ! . . .





# الفصل الثانی



# وجه السين

أصبحت جزءاً من زحام باريس . . ولم يعد صعباً علىّ أن أتحرك وسط هذه الكتلة الهائلة من البشر وأصبح من السهل أن أكتشف طريقى بسهولة فى أنفاق المترو . . . بدون أن أصطدم بالمتسولين والعشاق و باعة الورد ! . . .

ووجدت أن أسهل طريقة لجولاتى هى المشى ، والمشى يتيح فرصة أوسع لمن يريد أن يتعرف على أى بلد . . بالإضافة إلى أن تجربتى اليتيمة مع سيارة أجرة كلفتنى عشرة فرنكات فى مشوار صغير يبعد أمتاراً عن الفندق ! . .

ولا بد من الاعتراف بأن وجه السائقة الشقراء وطريقة قيادتها الجريئة وسط العربات قد شغلانى عن متابعة الطريق . . وحتى لو فعلت . . لما استطعت تمييز العنوان . فالشوارع فى الحى الواحد متشابهة . . والبيوت تبدو للغريب كأنها من تصميم مهندس واحد ! . .

وإذا كان المشوار لا يستحق العشرة فرنكات . . فالحديث الغريب الذى دار بيننا فى مرآة التاكسى يستحقها . . . فهو حديث معظمه من طرف واحد يتدرج ويقفز كحوار أفلام

الموجة الجديدة بين شفاه السائقة الحسناء التى تمضغ اللبان وتمضغ الكلمات أيضاً بلكنتها الفرنسية . .

— أنت غريب ؟ . .

— من القاهرة . . .

— أوه . . . بلد الشمس . . إن اليوم يبدو ممطراً . . . إنهم يعرضون فيلم « مظلات شوربرج » فى سينما ستراند . . هل شاهدته ؟ . . .

أنا لم تعجبنى النهاية . . ولكن فساتين البطلة رائعة . . إن الفرامل استهلكت حذائى الجديد . . المشاة هنا يتوقعون أن نحافظ عليهم . . بينما يجرون كالمجانين وسط الشوارع » ! . .

. . وتلتقى عيناها بعيناي فى المرآة وتقول :

— أراهن أنك طالب فى الحقوق ؟ . .

— لا . . أنا صحفى . . .

— آه الصحافة . . مهنة المتاعب . . هل تريد أن تسمع قصة مثيرة ؟ . . .

— . . .

— لقد حاول أحد الزبائن اختطافى . . هددنى بمسدس سدده من الخلف إلى رأسى . . وأمرنى بالتوجه إلى غابة « بولونيا » . . . كان الوقت مساء . هل زرت غابة بولونيا ؟

حسنا . . . وطوال الطريق كنت أفكر . . هل يريد سرقة النقود ؟ . . أم سرقة العربة ؟ . .

وتسكت لحظة ثم تضيف :
ـ ولكن هناك فى الغابة . . . اكتشفت أنه يريد تقبيلى؟. . .
ما رأيك ؟ . . . ألا تصلح قصة مثيرة ! . . . خيالى واسع
أليس كذلك ؟ . . . ها قد وصلنا . . عشرة فرنكات . . .
وبينما كنت أعطيها الفرنكات العشرة . . .
ابتسمت وهى تمد أصابعها الرشيقة وتقول :
ـ . . . زائد فرنكا للحقيبة التى تحملها . . ولا تنسى
البقشيش ؟ . . .

ووفر لى المشى نقودى . ولم أعد أستمع لقصص جديدة !
وكنت أتساءل وأنا أمشى أتأمل الناس الذين يتحركون فى
عجلة وتجهم . . ما الذى يشغلهم إلى هذه الدرجة التى يفقدون
معها ابتساماتهم ويتحركون فى نفس الخطوات ويقفون فى انتظام
أمام محطات المترو والأتوبيس فى ترتيب كزجاجات الجعة
عندما تتحرك داخل المصنع ! . .
واكتشفت الرد على سؤالى . .
إنه الوقت ! . . .
فالذين تفننوا فى تسلية السياح . . وجعلوا من ضياع الوقت
تجارة رابحة ، يتحركون مع عقارب الثانية يقدسون الوقت . .
طالما هناك عمل !
يلتهمون طعامهم فى لحظات . . « على الواقف » فى محلات
« السليف سيرفس » أو « اخدم نفسك » ثم تتحرك العقارب . .

ولا تهدأ حتى مساء السبت فتتوقف . . ويتوقف معها الزمن . .
وتصبح باريس كالبلدة النائمة . . طوال يوم الأحد . . .

وتنتقل الحركة كلها إلى الطرق المؤدية إلى الريف . . مع العربات المسافرة فى عطلة نهاية الأسبوع ! . .

يختفى الناس . . . يهربون إلى خارج المدينة أو يهربون داخل أنفسهم أمام المدافئ فى الحجرات الضيقة مع الأحاديث الهامسة التى تضيع خلال أيام العمل . . .

وتوصد المحلات أبوابها . . .

لتتقوقع باريس المدينة . . .

ويكشف نهر السين عن وجهه . . ويمد ذراعيه للناس يدعوهم ويغريهم . . يقف وحده على المسرح يلعب دوره التقليدى الذى أجاده خلال ٢ مليون سنة . . استقبل خلالها مولد باريس وتلقاها فى أحضانه ذاق معها الشهد والمر . . وعاش معها تجربة السلم والحرب . .

وشاهد الأسلاك الشائكة تثبت على أرضها . . وشاهد حمام السلام يطير فى سمائها . .

وبينما السنوات تغير باريس ليصبح لها أكثر من وجه . . احتفظ السين بوجهه الرمادى ونفس الملامح المميزة . . وعلى ضفتيه تمر الحياة كل يوم من نفس الشريط . . تعكس صفحته وجوهاً جديدة تعيد الحياة إلى نفس الشخصيات ونفس المواقف :

الصياد العجوز الذى يجلس الساعات الطوال يستجدى



الحظ ساعة ويتحداه ساعة أخرى .

. . بائع الكتب . . الذى جمع كل الثقافات معاً . . ويضع كتب سارتر إلى جانب رسوم « فان جوخ » . . وجلس على كرسيه الصغير ينتظر أن يجمع ثمن العشاء أو زجاجة الخمر . . لقد أصبح هذا البائع فيلسوفاً إنه يدرك من اللحظة الأولى من سيشترى ومن سيعبث بالكتب وينصرف . . بل إنه قد يتسامح أيضاً مع من يقف ساعة يقرأ فيها كتاباً ويرجعه مكانه ! . .

فالإعجاب ..ليس دائماً معناه المقدرة على الشراء ..وبائعة الورد فى كشكها الصغير . . تنسق الأنواع المختلفة . . وتجمع البنفسج فى باقات صغيرة وتقف تنتظر العشاق يأتون مع الغروب . .

وتحت الكوبرى ينام رجل طويل اللحية رث الثياب . .

إن شكله .. لم يتغير خلال السنوات.. إنه المتسول التقليدى. الذى لا يريد أن يعمل . . ويقنع بالنوم والكسل والفرنكات التى يجمعها من القلوب المحسنة . . لقد أصبح جزءاً من الصورة على ضفتى السين . . .

ولم تجد باريس حرجاً فى تصويره فى صورها السياحية !..

وقد علمنى السين لذة المشى . . ولذة التأمل . . والإحساس الذى يولد الدفء عند مشاهدة معطف واحد يضم حبيبين !

وعلمنى أيضاً رجفة البرد . . لمن يسير وحده بلا رفيق !

إن مياهه الرمادية ترسم لوحة مبهجة فى عين السائح الذى

يتجول فى بواخر النزهة . .

— « ولكن مياهه الرمادية كثيراً ما تصنع نهاية سوداء لحياة بائسة . . أو تستقبل الدقات الأخيرة للقلوب اليائسة ! » . .

قالها الصياد العجوز وهو يثبت الطعم فى السنارة . . ثم أضاف وهو ينظر إلىّ فى أسى :

— « هل تعلم . . كم مرة غيرت مواقع الصيد ؟ . . عشرات المرات . . .

لأنى فى كل مرة أسمع عن غريق أو أراهم ينتشلون جثة فتى أو فتاة . . . يطاردنى الإحساس بالخوف من الموقع . . فأغيره !

لا أحب أن تتغذى الأسماك التى أصطادها على قلوب العشاق ! . . . »

والسين ليس نهراً قاسياً . . فليس هو الذى يصنع تعاسة البشر . . وإن كان كثيراً ما يتحمل سخافات البشر . . مثل هذا السكير الذى رأيته ذات مساء ينحنى ليتأمل نفسه على سطح السين . . ويبدو أن الضوء كان ضعيفاً فلم يستطع السكير أن يتبين نفسه جيداً . . أو لعله كان يحدث نفسه . . فلم يتلق جواباً فقذف النهر بزجاجة الخمر التى كانت معه وهنا وضع شرطى قبضته على كتفه وهو يصيح فيه .

« . . . ماذا تصنع . . أيها الأحمق . . ألا ترى أن الزجاجة لا زالت ممتلئة إلى نصفها . . هل تريد أن تسكر النهر مثلك ؟ »

ولكن السين . . لا يسكر . . ولا يغمض عينيه . . فحتى

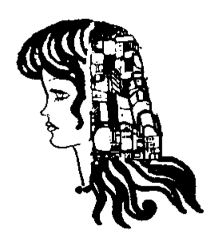
لو نامت باريس لا ينام السين . . فعليه أن يستقبل — بعد منتصف الليل — العربات المحملة بالخضراوات واللحوم والبيض والزبد . . تخطو فوق الكبارى إلى حى « الهال » أو معدة باريس التى عمرها ٨ قرون . . . والتى تستيقظ كل مساء . . وتتولد فيها حركة تفريغ عنيفة لا تهدأ قبل الخامسة صباحاً . .

وبينما يضيق الحى بمن فيه . . . ازدادت فيه المقاهى والحانات . . وازداد عدد زواره وتحول سوق اللحوم والفاكهة إلى مدينة صغيرة مستيقظة تموج بالحركة والنشاط . . .

وتعكس ضجيجها على نهر السين . . . فتبقيه متيقظاً حتى الصباح . . . ليستقبل المدينة وهى تتثاءب مع فجر اليوم الجديد . . . وبينما آخر عربات الهال تعود وقد أفرغت شحنتها .

تبدو من بعيد ساقا فتاة ليل عائدة إلى حجرتها الرطبة . .

وفى الضفة الأخرى تتحرك امرأة عاملة فى نشاط تسرع الخطا مع دقات الساعة . . وفى هدوء مثير يرقد السين بين ضفتيه يتأمل الحياة فى صمت ! . .





# الفصل الثالث



## .. لقاء ..

كان الصباح متجهماً والسحب حزينة تنبئ بدموع . .
ولكنني كنت أشعر بانتعاشة عجيبة . . أصفر ، وأبتسم لنفسي
كأنني على موعد غرام !

وبالفعل كان موعداً حدده الحب ، وشوقاً طويلا بدأ من
يوم أن علمني الفن الإحساس بالجمال . . وذقت فيه طعم
الوجه الجميل عندما ترتشفه عين الفنان !

لقد رأيت لوجهها عشرات الصور . . .

وسمعت عنها مختلف الروايات . . .

ولكن بيني وبين نفسي كنت أعتقد أنني أكثر المعجبين
بها إعجاباً . . .

وأكثر عشاقها عشقاً ! . .

وكنت في إيمان مبهم أحس أننا سوف نلتقي في يوم من
الأيام . . و . . سيدور بيننا الحديث في حوار طويل تعطيني
فيه من نفسها ما لم تعطه لأحد من قبلي !

فأنا أخلص الذين أحبوها . . . زادتني السنوات شوقاً إلى

اللقاء . . ولم تقو الوجوه الجميلة أن تذيب تقاطيعها من قلبي !

وفى الطريق إليها . . تساقط المطر ليزيد من لهفة خطواتى المتعجلة . .

وهى هناك فى انتظارى فى المبنى الضخم . .

وما أغرب مكان اللقاء . . .

قلعة ضخمة بناها الملك فيليب أوجست منذ ستة قرون ونصف قرن . ليذهب إلى الحرب مطمئناً على كنوزه وأسراره وزوجته ! . .

ويموت فيليب أوجست . . ويموت الأسرى . . وتضيع الكنوز . . وترحل الزوجة الجميلة وسيدة القصر إلى العالم الآخر . . .

وتأتى هى . . لتصبح سيدة المكان . . بلا منازع . . يأتيها الجميع من أطراف الأرض . . يقفون أمامها فى صمت وخشوع .

إنها سيدة المتحف العظيم . .

سيدة اللوفر ذات الابتسامة الخالدة . . . جيوكوندة الأجيال !

حبيبة البشر ! . .

نفضت قطرات المطر من على معطفى . .

أسرعت أبحث عنها فى حجرات المتحف . .

مررت على مئات الوجوه . . . تطل من لو ات الجدران . . . أو تتحرك أمامى من كل الأجناس . . .

ولكننى لم أحس بها . . بل لعلنى لم ألحظها على الإطلاق !
فى لهفة سألت أحد الحراس . .
– الجيوكوندة من فضلك ؟
وأشار الرجل إلى صف طويل من البشر :
– هناك . . .
ووقفت فى الصف . . .
أنتظر حتى يأتى دورى لألتقى بوجه المرأة التى ألهمت الكتاب والشعراء والفنانين .
والصف يتحرك فى بطء شديد ، وفى صمت بالغ . . رجال من كل البلاد . .
ونساء من كل الأعمار . .
والصف يتقدم فى بطئه المثير . . . وأحسست بالضيق . .
وأخيراً . . أصل . . وأقف أمامها . . وتلتقى عينانا . . فى نظرة طويلة . .
الجيوكندة . . . حبيبة البشر . . .
حبى القديم . . .
عيناها . . تنظران إلىّ . . هادئتان . . .
تنظران إلىّ أم خلالى . . لا أدرى !
وشفتاها تبتسمان . . فى تشجيع . . أم فى سخرية لا أدرى أيضاً . .
يداها رقيقتان تتعانقان فى نعومة . .

ولكن جبينها صارم مملوء بالعزم والإرادة !

شعرها ينسدل فى رقة النسيم . . يصافح الوجه ويحتويه من الجانبين . .

ولكن جسدها قوى يفرض جوده حتى أمام الصخور التى تمتد خلفها إلى السماء . .

وأحسست بالحيرة . .

لقد كنت أعرفها أكثر قبل أن ألتقى بها . .

وطالت وقفتى أمامها . . وهى صامتة . . مات الحديث على شفتيها . . بينما اشتعل الحوار فى أعماق . .

آلاف الأسئلة حائرة تتخبط . .

وشعرت بيد رقيقة تضغط على كتفى . .

لقد طال تأملى . . وصف البشر يريد أن يتحرك والحسناء خلفى هى الأخرى تريد أن تلتقى بالجيوكوندة .

ولعلها هى الأخرى جاءت تبحث عن سرها . . أو تريد أن تسرق منها سراً من أسرار الجمال . .

وتنحيت . . ولكنى لم أغادر الحجرة . . .

أردت أن أنتظر حتى يهدأ الزحام . . فأعود إليها وحدى ...

وجلست بعيداً ! . . .

والصف يموت ليولد من جديد . . .

وفنان مسترسل اللحية ينصب لوحته ويعد ألوانه ويبدأ فى رسمها . . .

ويهز رأسه . . . ويمسح ما رسمه . . ويبدأ من جديد . . ويعتريه اليأس . .

لا توجد صورة فى العالم لها هذا العدد الهائل من اللوحات المقلدة . . .

إنها تفرض تحديها على الفنانين .. تدعوهم لمحاولة اكتشافها.. لارتياد نفس الرحلة التى قام بها منذ أربعة قرون الفنان ليوناردو دافنشى.. وهاهو ذا الفنان أيضاً أتى يرتاد رحلته لغز والوجه الخالد .. فانهزم بعد الجولة الأولى وجاء يجلس إلى جوارى ليضع غليونه المطفأ بين أسنانه ويضغط عليه بعنف ويده الأخرى تعبث بلحيته فى حيرة !

وتذكرت كلمة الدكتور الفنان حسين فوزى عنها :

« فى الحقيقة إنها صورة تلقى اليأس فى قلوب أعظم الفنانين وأشدهم جرأة » .

ولكنى كنت أقاوم اليأس ! . . .

وهدأ الزحام . . فأسرعت إليها من جديد . .

إلى المرأة المتزوجة من فرانشيسكو ديل جيوكندو التاجر والتى جلست خمس سنوات أمام الفنان ليوناردو دافنشى ليرسمها !

اقتربت منها أكثر هذه المرة . . وجهاً لوجه . . وكان فى وسعها أن تقرأ خواطرى . . وتستمع إلى الحوار الطويل الذى مل الانتظار فى أعماقى . .

« أيتها المرأة الغريبة . .

« إن الفنان الذى رسمك . . كان أبرع رجال عصره فى
« الكيمياء والطبيعة والهندسة . . على يديه ولد علم التشريح . .
« لقد استطاع أن يحسب أبعاد الكرة الأرضية وأبعاد النجوم
« والشمس . . وتنبأ بالطائرة الشراعية والهليوكوبتر . . ورسم
« مئات اللوحات العظيمة . .

« ولكن صورتك وحدها هى التى خلدت اسمه وجعلت العالم
« كله يردده . . .

« وحتى عندما جاء فرويد يحلل حياته . . ويكتب عنه . .
« اختار صورتك ليكتشف منها أعماقه ! !

« لقد قام دافنشى بتشريح الجسم البشري . . ودخل
« بمبضعه داخل القلب . . وأطلقوا اسمه على مجموعة العضلات
« التى تنظم حركة البطين الأيمن فى القلب ! . . .

« ولكنك كنت الوحيدة القادرة على غزو قلبه !

« ولقد عشقك — أنت المرأة المتزوجة — وظل يرسم وجهك
« فى لمسة بعد لمسة كأنه يقبل باللون والخط ملامحك . ومرت
« سنوات خمس . . وانتهى الرسم تماماً . . وانصرفت فرقة الموسيقى
« التى ظلت تعزف لك على مر السنوات — أما هو فلم يجد الرسم
« منتهياً . . كان عنده المزيد ويريد أن يقوله . . أو لعله أراد
« أن يستبقيك العمر كله إلى جواره وكان الرسم هو حجته
« الوحيدة ! . . .

« إن حبه . . انتقل إلى لوحتك . . ليورث العالم كله هذا

« الحب العجيب . وأصبحت ابتسامتك أجمل ابتسامة عرفتها
« البشرية . . »

– أنت ترى الجانب الجميل من الأشياء . . ألم تقرأ ما قاله د . ح . س هايس مدير مركز الرعاية الصحية فى النمسا عن ابتسامتى ؟ . . لقد أرجعها إلى عيب فى عضلة شفتى اليمنى أثر حادث أصبت به !

– « ولكنهم قالوا أيضاً إنها ابتسامة تدل على الذوق السليم .
« فهى تتبع آداب السلوك فى القرن السادس عشر التى
« كانت تفرض على المرأة العريقة أن تبتسم من ركن شفتيها
« الأيسر ! »

– إن الدكتور كينيث ليل الطبيب البريطانى الشهير وعالم التشريح يجد تحليلاً آخر . . ألم تسمع عن تصريحه بأن ابتسامتى ثقيلة لا يمكن أن توحى بأن عمرى وقت أن رسمنى دافنشى كان ٢٤ عاماً وإنما ابتسامة امرأة حامل ، وأكد تحليله بجلستى واستنادى إلى ظهر الكرسى وثوبى الذى ينزل من صدرى إلى حجرى !

« ولكنهم كتبوا عشرات القصائد مدحاً فى ابتسامتك
« وافتتنوا بها . . وقلدوها فى الرسوم » .

– وهل تراك نسيت سخرية الرسام السريالى سلفادور دالى الذى حولنى إلى رجل . . شوه ابتسامتى بشارب رسمه فوق فمى . .

ووضع فى يدى حفنة من النقود . . ألم يجد وجهاً آخر يعبث به ؟ ! »

— « إنها ضريبة الشهرة ، عليك أن تسددى جزءاً منها
« . . ولا تنظرى إلى الأمر بحزن . . فالأمر مزحة سخيفة » .

— لقد أراد الكثيرون أن ينالوا منى . . حاولوا أن يوهموا الناس أننى رجل ولست امرأة . . وقالوا إننى كنت أحد تلاميذ دافنشى !

— « ورغم ذلك لم تفقدى معجبيك . . إن عددهم يتزايد
« يوماً بعد يوم . . وعندما سافرت إلى أمريكا . . خصصوا
« سفينة لك وحدك وصنعوا لك صندوقاً خاصًّا مكيف الهواء . .
وخلال شهرين ذهب ٧٧٫٥٠٠ أمريكى وأمريكية للقائك فى متحف المتروبوليتان وحده ! . . .
« وأمنوا على رحلتك بأكثر من ٣٥ مليون جنيه إسترليني » .

— وهل نسيت أننى سرقت من قبل !

« ولكن السارق كان يعتبر سرقتك عملاً وطنيًّا لقد
« ذهب يعمل نقاشاً فى اللوفر . . حتى استطاع أن يسرقك ذلك
« اليوم من أغسطس عام ١٩١١ وعندما عدت إلى مكانك فى
« ديسمبر ١٩١٣ صرح السارق فنشتو بيروجيا الفلورنسى الأصل . .
« بأنه لم يكن يقصد سوى إعادتك إلى موطنك ! . . »

* * *

وأفقت من تأملاتى قبل أن يكتمل حوارنا . .

والحارس يدفعنى برفق لأترك الطريق للصف المنتظر خلفى . . .

وقلت له وأنا أعتذر :

— لابد أنى استغرقت وقتاً طويلاً !

فأجابنى بابتسامة :

— ولقد اقتربت منها كثيراً حتى خيل إلىّ أنك ستقبلها !..

وقلت ضاحكاً :

— أنا أعلم أن لمس اللوحات ممنوع أما تقبيلها فلم أجد ما يشير إلى منعه !

— إن تقبيل الزوار للوحات ممنوع !

وغمز بعينه وهو يشير إلى عاشقين يتعانقان فى ركن . . ثم أضاف :

— لذلك لا يدخل « ذلك » فى اختصاصى !

وسألته :

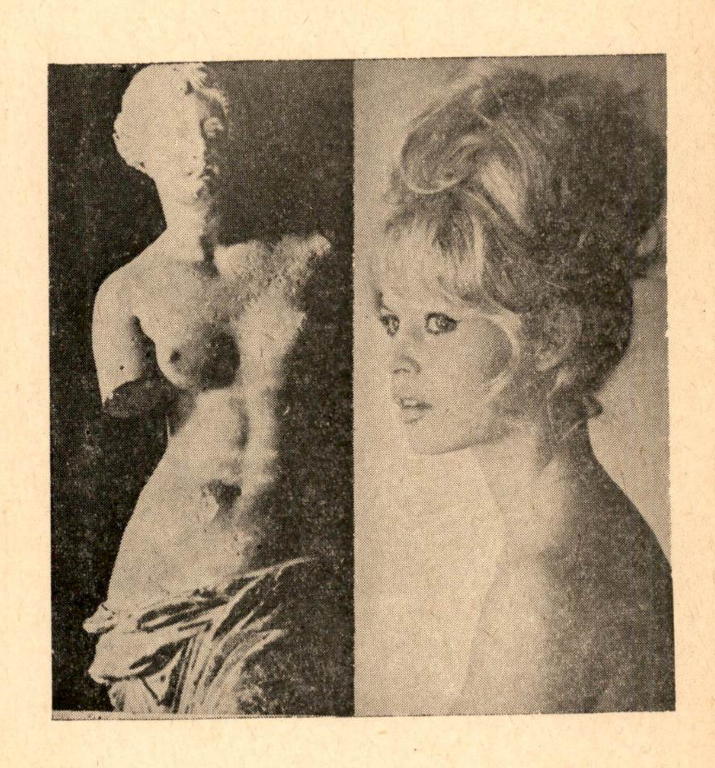
— . . وأنت ترى صورة الجيوكوندة يومياً ألا تحب أن تعود امرأة من دم ولحم ؟ !

— أولاً أنا لا ألتقى بها يومياً . . لأن نظام الحراسة يجعلنا نتبادل الأمكنة كل يوم . . أما إذا تحولت الجيوكوندة إلى امرأة

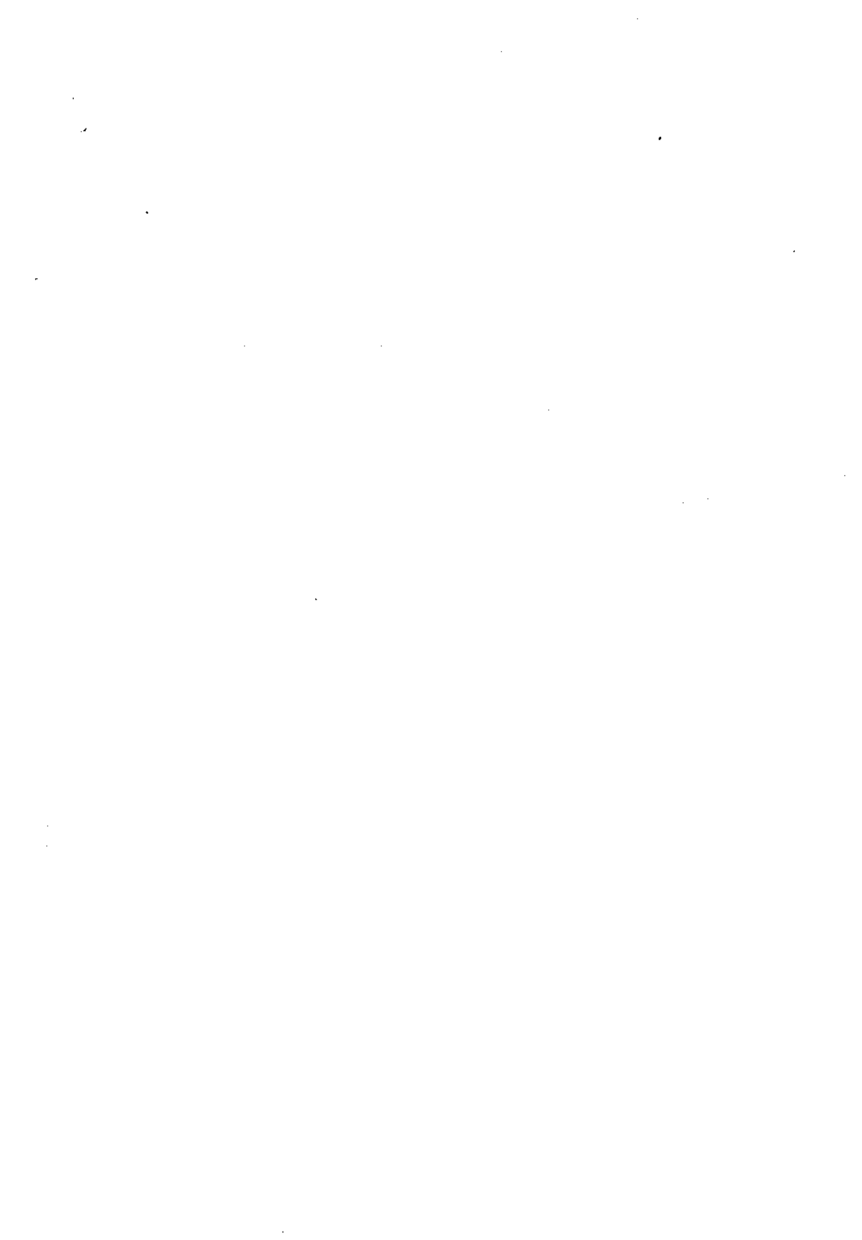
تأكد أنى سأعمل جاهداً إلى أن أعيدها إلى مكانها . . حتى لا يحاسبونى على اختفاء الصورة !!

وتركنى الحارس مع رنين ضحكته . . وعشرات الأسئلة حائرة ضاعت مع الحوار الصامت والحديث الذى لم يكتمل ! وقد زاد إيمانى بأنى كنت أعرفها أكثر قبل أن ألتقى بها ! . .

. . . . . .



## الفصل الرابع



## فينوس وبريجيت !. .

وإذا كان اللقاء مع صاحبة أجمل وجه مثيراً . . فلابد أن اللقاء مع صاحبة أجمل جسد أكثر إثارة ! . . والمشوار ليس بعيداً . . فنفس السقف الذى يضم الجيوكوندة . . يضم أيضاً فينوس !

وفى هذه المرة لم أقف فى صف طويل . . وإنما وجدت لقدمى مكاناً فيما يشبه الحلقة تطوق التمثال الرخامى الرائع الذى تقاتل من أجله الفرنسيون والأتراك فى جزيرة ميلوس فى عام ١٨٢٠ !

كانت فينوس تقف فى رفعة على قاعدة رخامية هائلة . . صدرها العارى يطل فى مزيج من الأنوثة والكبرياء . . وجسدها القوى المجرد من الملابس حتى أسفل البطن يعكس إحساساً غريباً يمزج الجنس بالأمومة ويقف فى اعتداد على القدم اليمنى ، بينما تثنى اليسرى فى لفتة إغراء وتبرز الساق من خلال ثنايا القماش . . .

أما الوجه البارز الجبهة الواضح التقاطيع فينحرف نحو اليمين بلا تعبير . . كأن صاحبته عاشت من التجارب ما جعلها تواجه العالم بلا حماس ! والعيون تطوف حول الجسد الرائع . .

إن عيون الرجال من كل الأجناس تلتقى مع الحلم الخالد فى الجمال المثالى . . صنع منه مثّال خالد مجهول الاسم الرمز المجسد لأفروديت ربة الفتنة والجمال !

ولكن العيون التى تطوف بالجسد الرائع بدت لى أنها فقدت حرارتها ! إنها عيون متطلعة . . مدهوشة . . أو متعجبة . . ولكنها ليست عيون عاشقة أو شغوفة بأى حال !

إنهم يتطلعون إلى فينوس ويكتشفون زوايا جسدها كأنهم يكتشفون جبلاً جديداً . . أو يطوفون حول أحد المبانى الأثرية !

وتساءلت عن السبب !

فقال لى الأستاذ السويدى والباحث فى تاريخ الفن :

– فى العصر الذى نحت فيه جسد فينوس كانت مثالاً لجمال الجسد النسائى ، أما اليوم فقد تغيرت النسب الجمالية وأصبح جسدها القوى وخصرها الكبير رمزاً لامرأة لا وجود لها فى المجتمع العصرى ! . .

مسكينة فينوس ! . .

إن العرش الوحيد الذى ما زالت تحتفظ به هو مكانها فى اللوفر . . أما مكانها التقليدى كربة الفتنة والجمال فقد فقدته تماماً كما فقدت منذ زمن بعيد ذراعيها ! . .

إن كل عصر يأتى بملكته . . لقد تغيرت الموازين الفنية . . واختار الرجال فينوس جديدة . . قد تكون ضئيلة الحجم نحيلة الجسد ، رفيعة الساقين . . لا تملك صدر فينوس ولا أصالة

بنيانها الضخم . . ولكنها هى اليوم ملكة الجمال والإغراء الشرعية بلا منازع . .

وأصبح اسمها فى حد ذاته رمزاً تفرض حروفه صورة سريعة فى الأذهان وتتجمع عندها فى الخيال صورة صاحبته كحواء القرن العشرين !

بريجيت باردو . . . أو ب . ب . . الصناعة الفرنسية البارعة التى أقبل عليها العالم كله ! .

— « إن جسد فينوس يصنع على الأقل ثلاث نسخ من بريجيت باردو . . ولكننى أفضل مع ذلك بريجيت بادرو ! »

قالها الرسام الفرنسى ونحن نتحدث عن آلهة الجمال التى صنعها الإغريق وآلهة الجمال التى صنعها الفرنسيون ! . .

و ٩٠ ٪ من رجال فرنسا عندهم نفس الذوق . . . ولعل هذا هو السر فى أن ٩٠ ٪ أيضاً من بنات فرنسا تحولن إلى نسخ دقيقة جداً من بريجيت بادرو ! !

أكثر من مرة كنت أقف أتأمل فتاة تنطلق أمامى وشعرها مسترسل فى جدائل وجسدها دقيق متناسق . . وأعتقد أننى أمام النجمة الباريسية . . التى بهرت العالم . . وأكتشف بعد لحظات أننى أمام نسخة متقنة تماماً من الأصل !

وعندما رأيتها فى الواقع اكتشفت أنها أرق كثيراً من الصور المثيرة التى تظهر لها فى المجلات وإعلانات السينما :

وإذا كان الرسام الفرنسى فاندنجان الذى احتفل أخيراً بإطفاء ٩٠ شمعة من حياته قد اكتشف بريجيت باردو بطريق الصدفة عندما لفتت نظره فرسمها ذات يوم وقدمها لصديقه المغنى الفرنسى موريس شوفالييه . فإن عملية تحويل الوجه الجميل والجسد الدقيق إلى معبودة للرجل العصرى لم تكن بطريق الصدفة أبداً ! وإنما وراءها مخرج فرنسى شاب — أفلامه اليوم تحقق أرباحاً طائلة — ومع ذلك فقصته بدأت مع الفشل ! . .

فهو كاتب فاشل لعدة قصص لم يكمل قراءتها أى ناشر . وله عدة محاولات غير موفقة فى كتابة السيناريو والإخراج السينمائى ، ولكنه استطاع رغ إفلاسه أن يتسكع بفشله فى باريس يعيش أعماقها ويستوعب مشاكل شبابها .

ودرس مزاج العالم الذى يسوده القلق والخوف من حرب ذرية قد تشتعل بين أى لحظة وأخرى . . وتأتى معها بالدمار الكامل . .

وعندما قابل المخرج الشاب روجيه فاديم بريجيت باردو لأول مرة برفقة موريس شوفالييه فى عام ١٩٥٠ كانت فى الخامسة عشرة مجرد فتاة بسيطة وعادية جداً لا تلفت النظر . . ولكنه أدرك أنه أمام قنبلة سريعة الفتك ! . . .

وبعد اختبارات سريعة بدأ فاديم يصنع قنبلته وقال لها :

— سوف أجعل منك حلم كل رجل متزوج فى هذا العالم وطلب منها أن تطيعه طاعة عمياء . . وتفعل كل ما يأمرها به

مهما بدا لها صعباً أو ثقيلاً ! . .

وأطاعت بريجيت . .

وبدأت من ذلك التاريخ ، صناعة أغرب لوحة للإغراء المجسم لهذا العصر . . المزيج المدهش لجسد صغير ناضج يحمل وجه طفلة . . التمثال الحى الذى يزيح فينوس من قاعدة الإعجاب الضخمة التى وقفت عليها خلال العصور !

كانت الخطوة الأولى ، أن حرل فاديم شعر بريجيت البنى إلى شعر أشقر مسترسل . . فالشعر الطويل أقرب إلى الأنوثة ويثير فى الرجل إحساسه بأنه آدم ! . . .

وعلمها كيف تتحدث بعينيها فى براءة ، بينما جسدها يتحدث فى نفس الوقت فى إغراء !

أعطاها دروساً فى الإلقاء لتبدو أبرأ الكلمات على شفتيها المكتنزتين جريئة مثيرة . . ولتصبح كلمة لا — عندما تنطق بها — معناها نعم .

جرب عليها كل أنواع الملابس وكل الألوان — واكتشف أن البنطلون الرجالى الأزرق والبلوزة الضيقة هما أجمل للقطة الشقية التى تعد لعرش الجمال !

وتمت الصناعة المثيرة . . وتحولت الفتاة الساذجة العادية إلى أحدث أنواع الفتنة . . . وكان أول ضحاياها هو فاديم نفسه . الذى تزوجها مبهوراً بها وازداد إصراراً فى وضع اللمسات الأخيرة !

وجاءت الخطوة الثانية . . طبع آلاف الصور لها . .
. . وزعها بنفسه على الصحفيين والمجلات والأصدقاء ! . .

وأغرق باريس فى سيل من اللقطات المثيرة مع التصريحات والريبورتاجات المختلفة . . و بريجيت مستلقية شبه عارية تستقبل الصحفيين ، ترد على حملقتهم برد حفظته من فاديم !

– عندما أكون عارية أتجرد أيضاً من عقدى النفسية !

وأثناء إخراج « خلق الله حواء » وقف فاديم يشاهد زوجته عارية على الفراش بين ذراعى البطل وصرخ فيه :

– اقترب منها أكثر . . امسح على شعرها برفق . . وقبلها بحنان . . وحرارة . . حسناً . . والآن مرة أخرى بقوة . .

ويغرق الاثنان فى قبلة عاصفة . . و يفرك فاديم كفيه و يتمتم

– حسنا . . حسناً جداً . .

ورفع الفيلم فاديم للقمة . . وأصبحت ب . ب نجمة عالمية . . تحتل صور الأغلفة ويصبح لاسمها رنين خاص تؤلف من أجله الأغنيات وتفوز فى استفتاء أحب وجه نسائى !

ولكن « فينوس الجديدة » بعد أن وقفت على عرش الجمال وعلمها زوجها كيف تحب تركته لغيره . . ولكن حتى بعد الطلاق قالت :

– كل ما أعرفه . . وكل ما أصبحته بفضل فاديم . .

وحاول فاديم أن ينتقم ويصنع آلهات جديدات . . مثل آنيت ستروبرج وكاترين دنيف . . وجين فوندا . . .

ولكن لا آنيت ستروبرج الدانمركية . .
ولا كاترين دنيف السويدية . .
ولاجين فوندا الأمريكية ! . .
استطاعت أن تزحزح عرش الجمال من تحت أقدام بريجيت باردو والسبب أنه يوم أن صنع فاديم ب . ب . اشتركت معه فرنسا كلها فى حماس .

فهى فتاة فرنسية . . من أب فرنسى . . وأم . . فرنسية . . أول من رسمها هو أشهر فنان فرنسى رسم المرأة . فاندنجان . . ذو الألوان الفرنسية الجذابة . . وأول من زكاها لفاديم المغنى الفرنسى الدافئ الصوت موريس شوفالييه ! . .

لذلك كل « الأطوار » التى تعاقبت فى « خلقها » وكل الأيادى التى رفعتها إلى عرش الفتنة والجمال فرنسية صميمة !

وأصبحت ب . ب من أهم منتجات فرنسا . . وشخصياتها العظيمة . .

قالت لى مديرة العلاقات المسئولة عن الدعاية لأفلامها :

— إن بريجيت تحصل على ٨٠ ألف فرانك عن بطولة الفيلم الواحد . . وهو أعلى أجر عندنا . . وهى تستحقه لأن أفلامها تحقق الجزء الأكبر من أرباح السينما الفرنسية هنا وفى العالم . .

ولا عجب أن تنشر دائرة معارف « لاروس » الصورة التى رسمها لها فاندنجان ! . .

ولا عجب أن خلال ٤٢٥ ألف بنت ولدن فى عام ٦٣ هناك ١٠ آلاف باسم بريجيت !

فباريس سعيدة بابنتها التى تربعت على عرش الجمال العالمى . . سعيدة وحريصة فى نفس الوقت على تأكيد وتثبيت أقدامها على هذا العرش أطول مدة ممكنة . .

لقد شاهدت ميداليات فضية وبرونزية أصدرتها مصلحة سك النقود . . طبع عليها تفاصيل جسدها !

ورأيت طوابع بريد مزينة بصورة وجهها !

وعرضت المحلات النسائية ملابس داخلية تحمل اسمها !

لقد استطاعت أن تحسم الخلاف الذى احتدم حول الفساتين فوق الركبة عندما اختارت فستاناً يرتفع عشر سنتيمترات فوق الركبة . . ونشر الخبر . . وفى اليوم التالى شاهدت بعينى نصف الفتيات يسرعن تحت البرد والمطر فى فساتين تماثل تماماً الفستان الذى ظهرت فيه ب . ب فى صحف الأمس !

وفى كل يوم كنت ألتقى بالعشرات من شبيهات « مس باردو ! » « تخرجن » من عند حلاقين تخصصوا وأتقنوا التسريحة التى امتازت بها « قطة السينما العالمية » !

وكنت أتساءل :

كيف استطاعت هذه البنت الفرنسية أن تدير رؤوس الرجال فيضعون اسمها فى صناديق الانتخاب وتمحو شخصيات

النساء إلى حد التقليد المطلق إلى هذا الحد ؟ ! . . .

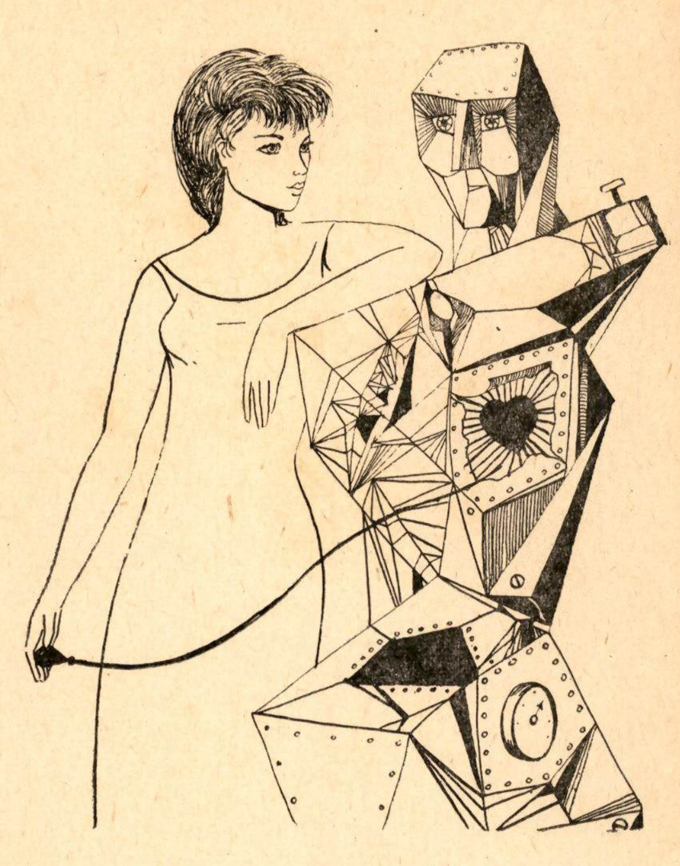
ولابد أن نفس التساؤل جعل الأديبة الوجودية الكبيرة سيمون دى بوفوار تحللها فى كتاب رائع كشخصية وظاهرة اجتماعية تستخلص من شهرتها نتيجة تدين ذوق الرجل العصرى بالمرض؛ فأنوثة بريجيت فى رأيها ليست صارخة وإنما هى أقرب شبهاً إلى الغلام . . أما سر هذا الاهتمام والهوس بها فمرجعه إلى عوامل متعددة مثل الأزمة الاقتصادية وفشل فرنسا فى الحروب المختلفة ؛ والاهتمام الذى يدفع بكاتبة عظيمة ألقت أضواء واضحة على مشاكل الإنسان والحرية والموت يوضح أهمية ب . ب كظاهرة فى المجتمع الفرنسى والعالمى . . فهى لم تعد نموذجاً جمالياً فحسب . . وإنما مقياساً لنفسية الرجل العصرى وتفكيره . . فتصبح أكثر فاعلية وأشد خطراً من فينوس نفسها ! . .

إن فينوس فى عريها الكامل أسفل البطن كانت تكشف عن نسب جمالية صاغها النحات المجهول ليقربها فى خياله من أفروديت . . أما اللمحات التى تكشفها ثياب ب . ب عندما تتحرك فى الأفلام وأغلفة المجلات وإعلانات السينما فهى تشكل الموضة النسائية لسنوات قادمة وتحدد ذوق الرجال وميولهم .

فقد تحولت ب . ب لتصبح « النموذج » العالمى لحلم الرجل العصرى الذى يخاف من امرأة ناضجة توازيه حجماً وفكراً ؛ وراح يتطلع إلى نموذج جديد . . يعطيه إحساساً أعمق بقوته ورجولته . .

وبينما فينوس تبدو « وقورة جداً » فى عريها التقليدى . . . تبدو ب . ب عارية جداً فى موضات اللامعقول و « المينى جيب » والجوارب السوداء الطويلة . . حتى بعد أن تزوجت للمرة الثالثة وأصبحت أماً . . وتعدت الخامسة والثلاثين !





# الفصل الخامس



## الموضة والأزرار السحرية !

امرأة فى باريس تتمنى كل نساء العالم مقابلتها . .

ليست نجمة مثيرة مثل بريجيت باردو أو جان مورو !

وليست أديبة جريئة مثل فرانسواز ساجان أو كاترين روشفور . .

وليست قارئة كف . . تقرأ الطالع ، تمسك الأحلام فى الكف وتصطاد زوج المستقبل فى بللورة الحظ !

ولكنها قارئة « الموضة » مايم أرنودين . . المرأة الوحيدة فى العالم كله التى تملك أسرار الموضة . . عندها وحدها الخطوط التى ترسم أزياء المستقبل ! . . وهى الوحيدة التى يتلهف تجار الأقمشة على انتظار همسة من شفتيها تحدد فيها اللون المفضل للموسم القادم ! . .

ومن هذه الهمسة تنطلق إشارة البدء فى سباق عنيف بين رسامى الموضة . . كل واحد — وقد تلقى إطار الشكل واللون المفضل — يحاول أن يخلق الزى المناسب . .

لسنوات طويلة ظلت مايم أرنودين . . هى الآمرة الناهية ... فى أمر الموضة . . وهى المرأة التى تطمع أى امرأة أنيقة فى تفتيش أدراج مكتبها ! . فالرسوم القابعة فى مكتب أرنودين هى صواريخ

المستقبل التى تنطلق ترفع الأزياء فوق الساق أو تخفضها حتى القدم ! . . . .

اعتمدت أرنودين على ما تسميه « رادارها » الخاص الذى يمكنها من إدراك أنسب الألوان والأشكال لعام ونصف — وهى الفترة التى تلزم لطبع الأقمشة ، وتحديد أشكالها . . . واعتمدت على فهمها لنفسية المرأة فى ابتكار الأشكال الجديدة . . وتلجأ إلى الاقتباس أحياناً من الفن التشكيلى لتعطى الموضة شكلاً فنياً متطوراً مثلما فعلت عقب معرض « البوب آرت » الذى أقيم فى متحف الفن الحديث بنيويورك . . لقد استغلت وقتها كل أشكال « البوب آرت » الفنية الجديدة ، والتشكيلات التجريدية التى تعتمد على خداع البصر . . لتنقلها إلى الأقمشة النسائية ... و . . خرجت اللوحات إلى الشارع تتحرك بسيقان رشيقة !

وكان من الممكن أن تعيش أرنودين لسنوات قادمة متربعة على العرش الذى خلقته . . وتضمن ألا يهتز تحتها . لولا مفاجأة أخيرة . .

فالعلم الذى امتد إلى كل شىء . . لابد أن يدخل ميدان الموضة أيضاً . . والأزرار التى تطلق الصواريخ لن يعجزها أن تطلق خطوط الموضة أيضاً . .

لقد خلق العلماء أخيراً مدام أرنودين جديدة ! ولكنها من حديد وصواميل وعيون إلكترونية . . لا تعمل بالدولارات أو الفرنكات . . وإنما بالضغط على أزرار صغيرة . . تنطلق

بعدها الآلة تفكر وتحسب ثم ترسم الخطوط والألوان المناسبة . . لا لعام . . أو عام ونصف فقط . . وإنما لخمسة أعوام قادمة !! مسكينة أرنودين . . إن الآلة الجديدة لا تكتفى فقط بقراءة خطوط المستقبل . . ولكنها أيضاً آلة ذكية لها عقلية نسائية جداً . . فهى مدبرة مثل ست البيت . . تستطيع فى أقل حيز من القماش أن ترسم أجزاء الفستان فى براعة تأسر أى امرأة وتجعلها تدير ظهرها إلى الأبد إلى أرنودين المسرفة !

حتى عيوب الجسد لها علاج عند الآلة العجيبة . . فهى وإن كانت تشكل الخطوط العامة . . إلا أن قلبها الطيب يجعلها تستجيب للحالات الخاصة فتعطى لكل قوام الشكل والخطوط الفنية التى تناسبه . . لقد فقدت أرنودين العرش الذى بنته فى سنوات . . وأغلب الظن أنها ستذهب هى الأخرى — وسط صفوف النساء ، ستستشير فى تواضع آلة المستقبل ، وتسألها أى الألوان تختار للموسم القادم !

بل « إن الآلة العجيبة » تستطيع فى المستقبل القريب أن تدخل مهرجان الموضة الذى يقام فى باريس مرتين كل عام ويشترك فيه أكثر من ٥٠ بيتاً من بيوت الأزياء المعروفة ، تعرض آخر صيحة فى عالم الأزياء . . .

إن « الآلة العجيبة » ستسيطر بالتالى على واحدة من أكبر العمليات الصناعية والاقتصادية فى فرنسا . . فالموضة بأزيائها ومهرجاناتها وما تولده من حمى المناقشة وجنون الاقتناء — تحرك

مصانع الأقمشة التي تشغل آلاف الأيدى العاملة من الجنسين . وستتحكم الأزرار الإلكترونية فى ٢٠٠ بليون دولار من العملة الصعبة تدخل خزينة الحكومة الفرنسية فى كل عام !

حتى « آلتا » لن تستطيع مقاومة إغراء العمل مع « الآلة العجيبة » و« آلتا » أول عارضة أزياء فرنسية تحصل على جائزة الأوسكار التى أنشأها اتحاد بيوت الأزياء الفرنسية . .

« وآلتا » تعمل عند بيير بالمان ولكن لا مانع عندها من العمل مع صاحبة الأزرار الإلكترونية ! . . . وهى أكبر خسارة لبالمان . . لأن « آلتا » ليست عارضة أزياء جميلة فحسب وإنما تملك موهبة التواضع وتركز اهتمامها أثناء العرض فى إبراز جمال فستانها فقط وتستطيع فى نفس الوقت أن تتناسى جمال قوامها وحلاوة سيقانها . . وهى مسألة نادرة فى عارضات الأزياء وخاصة بعد ظهور أزياء « البلاستيك » وتحول الكثير من العارضات من عرض الأزياء إلى ما يشبه استعراض « الستربتيز » . . وأصبحت المسألة عرضاً للأجساد وليست عرضاً للأزياء . . بعد أن ظهر « باكورابان » ملك البلاستيك فى باريس وطرح مايوهات وفساتين كلها مصنوعة من البلاستيك . . أصبح عرضها نمرة مفضلة عند جمهور علب الليل وخاصة ملهى « الكريزى هورس » أو الحصان المجنون . ولكن بعد احتجاج بيوت الأزياء . . اختفت العارضات من اللعبة وأصبحت متروكة

لجهود فتيات « الستريبتيز » وعاد لفن « العرض » كرامته وأصوله . . .

إن « الآلة العجيبة » قد تغرى بأزرارها الإلكترونية عارضة الأزياء لأنها تستطيع أن تصنع القماش المناسب والتفصيلة المناسبة .

« ولكن الرجل ما زال أكثر إغراء لأنه هو وحده يستطيع أن ( يصنع ) عارضة الأزياء نفسها » !

قالتها واحدة من أجمل عارضات باريس فى حماس وتضيف لتأكيد كلامها ، حكاية « دانيل شيفالييه » عارضة الأزياء التى أصبحت ملكة جمال باريس بفضل مصمم أزياء متواضع لا يملك عقلاً إلكترونيًا أوأزراراً سحرية ، وإنما يمتلك عيناً حساسة . . للجمال . . استطاع هذا المصمم المتواضع من « بوردو » أن يقدم لباريس ملكة جمالها !

والمرأة الفرنسية تعترف بفضل الرجل ، وتستسلم لفنه بلا مناقشة . . . وإذا كانت أرنودين هى الآمرة الناهية فى خطوط الموضة . . . وإذا كانت الأزرار الإلكترونية قد ظهرت على المسرح . . فالواقع قد أثبت أن خلال الفصول الأخيرة من مسرحية الموضة قد قام رجل بدور البطولة . . رغم أنه لم يظهر على المسرح . . إنه الفنان الذى خلق « الأوب آرت » ليصبح اسمه « الشكل الحديث »فى كل ما تلبسه المرأة . .

خرجت خطوطه وألوانه من اللوحة لتحتل مكانها العصرى

فى ملابس المرأة ، والحذاء الذى ترتديه ، والحقيبة التى تحملها بل حتى الحلق الذى تتزين به ، وسلسلة المفاتيح التى تعبث بها .

ولكنه ليس موجوداً فى باريس ليراقب هذا النجاح « المتحرك » لفنه وأسلوبه . .

ولم أكن أستطيع أن أملك نفسى من التفكير فيه فى كل مرة أتطلع فيها حولى فى ملابس الحسناوات : أين أنت الآن يا موندريان لتشاهد لوحاتك العجيبة على أجساد النساء ؟ !

لقد مات « موندريان » مبتدع فن « الأوب آرت » منذ ٢٢ عاماً . تاركاً لوحاته فى المتاحف وعلى جدران العرض ، ولم يكن هناك من يعتقد وقتها أن أسلوبه المميز سيغير الأذواق ، ويرسم الإطار الجديد لحواء العصرية التى تتحرك فى نشاط ، فى خطوط جديدة واضحة ، وألوان صريحة محددة داخل المربعات والمستطيلات !

وجد موندريان فى العلاقات الصامتة بين الأزرق والرمادى والأخضر فناً حياً وأحدث « حركة » من توالد فن علاقة الخطوط الرأسية بالأفقية . . .

وهذ « الحركة » هى التى ترتديها المرأة الباريسية فتزيدها حيوية . . وتضفى عليها حتى فى لحظات الصمت والهدوء « ضجيجاً » محبباً من الفتنة والجمال !




# الفصل السادس



# بارباريلا : جوديل : كلودين :

# صناعة باريسية جديدة !

شاهدت مونت كارلو أغرب مؤتمر من نوعه . . إذ جاءت وفود من الولايات المتحدة الأمريكية ، وإيطاليا ، وبلجيكا ، وإسبانيا ، وسويسرا وفرنسا لتتبادل الآراء والخبرات والحديث حول المسلسلات المصورة التى تنشرها الصحف والمجلات . . والتى حققت فى السنوات الأخيرة ربحاً خيالياً واهتماماً واسعاً لدى الجمهور . . واستطاعت أن تشكل اهتماماً خطيراً فى نفوس الصغار والكبار ! !

وفى أثناء هذا المؤتمر أعلن عن مولد باربارِيللا . . فرنسية شقراء ، طويلة الشعر دقيقة القوام ، واضحة الفتنة . . وهى بطلة جديدة من أبطال هذه القصص ترشحها فرنسا لغزو الأسواق واحتلال صفحات المجلات والصحف اليومية !

وقد خلق الكاتب جون كلود فورست بطلته بعد دراسة ذكية وماكرة لكل الشخصيات النسائية المعاصرة فى عالم السينما والمغامرات ، وجعلها تعيش أحداثاً هى مزيج من الأسطورة الإغريقية ، والمعتقدات الخرافية ، وعالم الغد الغريب بما فيه

من كواكب غامضة وعوالم مجهولة . . وفى اختياره لاسمها راعى ما يثيره اسمها من معنى القوة . . إذ اشتقه من « باربار » .

وقد أطلق عليها لقباً مثيراً فهى « باربا ريللا جورجورا دى فامبيرا ، سليلة عائلة شاربى الدم والنبيذ » !

ومغامرات بارباريللا مزيج من الجرأة والخيال . . وخفة الشخصية ومزيج عجيب من الحنان والقوة . . إن الكاتب يريد أن يجعل القارئ أسيراً لبطلته . . عندما يختلط فى قلمه شعور الحب بالإعجاب والخوف كلها فى جرعات متتالية فى تتابع الصور والأحداث . .

وجاء الرسام ليجسم خيال الكاتب . . فاستعار بعض مميزات الممثلة بريجيت باردو ، كالشعر الطويل والأنف الدقيق والشفتين المكتنزتين . . والقوام التقليدى الذى يطالع مشاهدى الروايات الاستعراضية ، وإعلانات صابون الجمال !

وتنطاق هذه الشخصية المثيرة حاملة ملامح شابات التويست ، فتلعب بالقدر وبقلوب الرجال وتواجه كل صور الحب ، حتى حب الرجل الآلى . . ومخلوقات الزهرة والمريخ !

ما هى القيم التى يريد الكاتب إبرازها فى شخصيته ؟ وما سر هذا الغلاف الذى يصبغ به الرسام هذه الشخصية ؟

للأسف . . مجرد حيلة لتحويل الجمهور فى تيار جديد ناحية المسلسلات الفرنسية . . بدلاً من المسلسلات الأمريكية أو الإنجليزية ؟

. . والكاتب يقول وكأنه يهز كتفه : « بارباريللا قد لا تكون ذات أخلاقيات ولكن عندها مثلاً عليا » !

أما المثل العليا التى يتحدث عنها المؤلف . . فهى حرية امرأة سيدة نفسها ، تختار من الرجال من تشاء . . وتكرد من تشاء . . فتتفنن فى تعذيبه !

والذى لا يريد أن يقوله المؤلف ، هو أنه اشترك مع الرسام فى صناعة جديدة لاستدرار الفرنكات .

وفى الوقت الذى كانت فيه بارباريللا الحسناء تسيطر على مؤتمر مونت كارلو . . كنت أقرأ فى باريس خطاباً غرامياً مثيراً موجهاً إلى النجمة جوديل التى كتب لها الأديب فرانز أندريه بورجيه خطاباً مفتوحاً فى مجلة « آر » الفرنسية تحدث فيه عن إعجابه بها !

وليس الغريب هو خطاب بورجيه ولكن الغريب حقا هو جوديل نفسها إذ أن جوديل هى مجرد رسم مثير للرسام « جاى بيلار » . . يتحرك كل أسبوع فى مغامرة مثيرة يتتبعها الجمهور فى شغف كما تتبع من قبل مغامرات بارباريللا . . والرسم الذى يعطى « لجوديل » جسداً مثيراً يعطيها أيضاً مقدرة غريبة على الحركة السريعة والفتك بالأعداء !

« جوديل يا حبى !
أنت مثيرة . . أنت شقية . . أنت حمقاء . . وقاسية . .

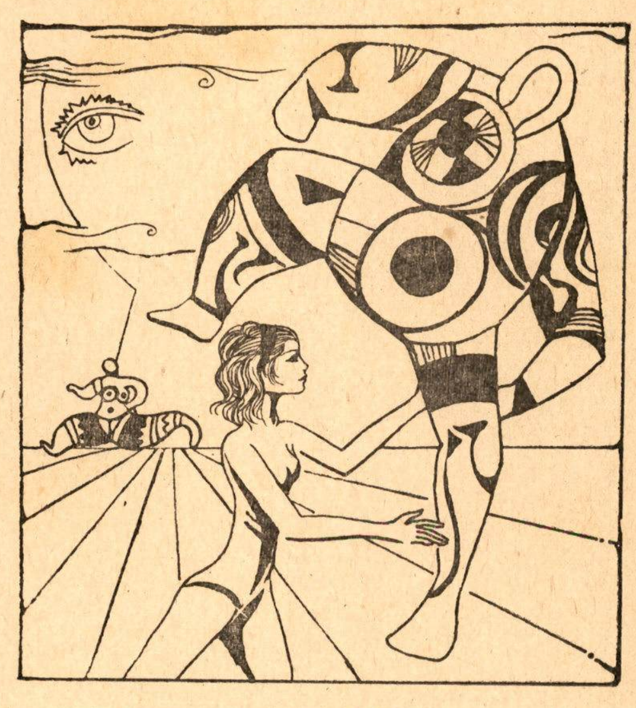
ولكنى أعبد الاحتقار المرسوم على شفتيك والهالات السوداء حول عينيك » !

« جوديل . . معبودتى . . أنا أعيش فى العالم الملون العجيب الذى تخلقينه حولك . أتتبع حياتك يوماً بعد يوم فى الصور التى تنقل لى تصرفاتك وأشاهد خلالها حركاتك ونظرات عينيك » !

والخطاب طويل . . وأغاب الظن أنه سيثير غيرة ب . ب وكل النجوم الذين لم يسعدهم الحظ بقراءة خطاب غرامى منشور . . .

أما الرسام « جاى بيلار » فلابد أنه سعيد لأنه استطاع برسمه لشخصية جوديل أن يسرق البريق من ممثلات الإغراء خاصة وأنه لفت نظر الناشر « إيريك لوسفيلد » وتعاقد معه على طبع مغامرات جوديل فى كتاب ظهر ليحتل الصدارة فى المكتبات ! . .

وتشاء الظروف أن ألتقى بالممثلة الفرنسية « كلودين أوجيه » فى مهرجان كان وأجد فيها المزيج الحى من « بارباريللا » و « جوديل » ولقد أراد المخرج « جون بيركاسيل » أن يؤكد هذا الشبه بشكل واضح فاختارها بطلة فيلمه « ألعاب قاتلة » الذى فيه يضيع الخيط الرفيع بين الواقع والخيال وتصبح « بارباريللا » و « جوديل » و « كلودين » امرأة واحدة مثيرة . . صناعة فرنسية جديدة جاهزة للتصدير !



# الفصل السابع



## تحية إلى الجنون

بعد أسابيع من متابعة الحياة فى باريس . . بكل ما فيها من جديد وغريب . . وبعد أن عرفت باربارياللا وجوديل وتعرفت بكلودين أوجيه . . وشاهدت الميني جيب . . والميني ميني جوب . وبيجامات السهرة . . بدأ إحساسى بالدهشة يقل تدريجياً وأنا أتعود على الإيقاع الجديد الذى وجدت نفسى فيه . . وأصبحت أمر على إعلانات غريبة ومثيرة لأفلام ومسرحيات مختلفة أو أشاهد لوحات وتماثيل مطعمة بقطع الزجاج أو تتحرك بالكهرباء فلا أقف . . . لقد أصبحت مألوفة ومكررة . .

ولكن ذات مساء وجدت نفسى أقف طويلاً على باب مسرح « الشانزليزيه » أتأمل الإعلانات الغريبة ، وأشاهد الناس يتدافقون لحجز التذاكر . . .

ووجدت نفسى أجلس وسط الجمهور . .

وأعود فى الليلة التالية أيضاً . . لأتعرف على المخرج واقفاً وراء الكواليس . . وعلى بعد خطوات . . .

كان « رولاند بتى » مخرج أغرب باليه حديث تشاهده باريس . . وراء الكواليس ، يرقب فى اضطراب الستار وهو يفتح على المنظر الأول ويسمع همهمة الجمهور ودهشته عندما

واجهته الآلة الضخمة العجيبة التى تتحرك فى عشرات التروس ، ثم أضواء النيون التى تلمع فى الديكور العجيب . . وتشكل وجهاً مستديراً لامرأة ذات عين واحد وقلب أحمر يرتجف على خدها الأيمن ! . وبالقرب من « رولاند بتى » وقف مذيع التليفزيون يلاحقه بالأسئلة :

– هل أنت خائف ؟ . . ما هو شعورك ؟ ! لماذا أطلقت عنوان « تحية إلى الجنون » على هذا الباليه ؟ . . هل أنت راض عن عملك . . و . . .

ويرد رولاند بتى فى صوت هامس :

– إن الرقصة قد بدأت . . دعنا نتحدث فى همس حتى لا نقلق الراقصات . . نعم . . أنا خائف . . إنها تجربة جديدة . . ولذلك أحس بالاضطراب . . ورغم أنى راض عن الجهد الذى بذلته مع زملائى الفنانين خصوصاً ديكور « تينجلى » . . وراقصات « نيكى سانت بال » . . ولكنى مع ذلك متلهف على معرفة رأى الجمهور وإحساسه . .

ولكن مخاوف « رولاندى بتى » التى ولدت فى قلبه مع افتتاح الستار فى الحفلة الأولى . . سرعان ماماتت وسط التصفيق الحاد المتواصل الذى حياه به الجمهور .

والمتفرج وهو جالس فى كرسيه . . قد يصدم إذا دخل معتقداً أنه سيلتقى بما يشبه « بحيرة البجع » أو « روميو وجولييت » . فإن أول ما يصفع الخيال . . هو « راقصات البلاستيك » فى

ضخامة غير عادية تملأ المسرح وتتحرك فى الظلام ، ثم تلمع عليها الأضواء فجأة . . وتنبثق فيها بقع اللون فى تكوينات زخرفية غريبة . . هى الرمز التشكيلى للمرأة التى تسود العالم . . ثم هناك الوجه النسائى ذو العين الواحدة يلمع بالنيون ويرمز إلى إعلانات العصر الحديث . . ومع توزيعات موسيقية غريبة وبارعة قريبة من « السيلفيد » يحكى رولاند بتى فى تسعة مشاهد متتالية . . قصة امرأة بسيطة . . كانت لا شىء . . وصنعتها الإعلانات . . ورفعتها أيدى الرجال . . ولا تلبث أن تصبح هى كل شىء . . هى مصدر القوة والإعجاب . . أمامها تتوارى كل العناصر الأخرى . . ويتضاءل الرجال فى الظل . .

ويقول فيكى النحات الحديث الذى صمم راقصات البلاستيك التى تظهر لأول مرة :

« إننى أرسم المرأة كما ترى نفسها . . إن الأجزاء المختلفة لجسد المرأة ترقص وترقص . . وتتجمع لتخلق امرأة واحدة هائلة . . هى الصورة العكسية لخيال الرجل الذى يصور له غروره التقليدى أن المرأة مجرد جسد ضعيف مسكين ! إن راقصات البلاستيك . . هذه الدمى العجيبة هى الرمز المباشر لانتصار الأنوثة وسيطرتها على العالم » !

ومن ساعة أن عرض باليه « تحية إلى الجنون » على مسرح الشانزليزيه . . والحديث يحيط بكل ما حوته الراقصات من طرافة والديكورات من إغراق فى الرمزية والخيال . . وسمعت واحدة

من المتفرجات تقول عندما شاهدت الدمى البلاستيك : « سواء كانت تحية للمرأة أم لا . . أنا لا أحب إطلاقاً أن أكون فى ضخامة هذه المرأة ! »

ولكن فى جدية واحترام نيتشه . . هناك من قال إن المخرج الشاب يدعو إلى حب الحياة ! الحب إلى درجة الجنون !! وهناك من وجد فيما قدمه دعوة إلى الإقبال على الحياة كما هى . . وهناك من قال : « إنه أراد أن يجعل الحياة ترقص ! . . »

أما تعليق الرجل العادى . . فيشبه إلى حد بعيد . . هذا الزوج الفرنسى الذى جلس إلى جوارى وقال فى نهاية المسرحية متلفتاً إلى زوجته :

« عزيزتى لا تسعدى كثيراً بهذه الصورة المبالغ فيها لقوة المرأة . . فكما ترين أنها ضخامة البلاستيك لا غير ! »

ولم أسمع تعليق المرأة . . لأن التصفيق الحاد فى نهاية الباليه طغى على كل الأصوات .




# الفصل الثامن



# أحزان العصفورة الذهبية !

فى « بلفيل » يوم أن علقوا يافطة تحمل اسم « أديث بياف » المغنية الفرنسية التى ماتت بعد أن علمت الحب لكل نساء باريس امتلأ الشارع الطويل بآلاف المعجبات جئن من كل مكان فى فرنسا لتحية المغنية ، ويذرفن الدموع على بوابة البيت الذى ولدت فيه .

وقف المغنيان موريس شوفالييه و « جيلبير بيكو » يتأملان المشهد فى تأثر شديد ! . .

فالمرأة الفرنسية عاطفية ، تعرف الوفاء ، ولكنها أيضاً واقعية جداً فبعد أسابيع كانت « ميراى ماتيو » مغنية شابة فى العشرين تقلد « بياف » وتأخذ مكانها فى القلوب ، وتحتل مكانها على المسرح ، بل تسرق حتى ملحنها القديم جورج ديمو !

وظهرت الصحف تحمل نبأ محاولة « ساغابو » الانتحار !

وساغابو هو الحلاق الشاب الذى تزوجته بياف وهى فى خريف العمر سنوات قبل موتها !

وقال « ساغابو » للذين راحوا يزورونه :

« لقد تخلوا عنى ! »

وقالت لى بائعة الصحف الباريسية وهى تشير إلى صورة

ساغابو وحديثه :

« كان المسكين يتوقع أن يكون الوريث الشرعى لصوت بياف وشهرتها ، ولكن أذن المرأة الفرنسية واقعية فاختارت واحدة من بنات جنسها لتحل محل عصفورة باريس التى طارت إلى السماء ! »

وشاهدت العصفورة الجديدة وهى تغنى . . فى التليفزيون وعلى المسرح . . وأحسست رغم ابتسامتها الواسعة . . أنها تبدو حزينة . . ثم تكشفت الحقائق وظهرت عناوين ضخمة تكتب المأساة :

« أشهر مغنية فرنسية اليوم تمر بأزمة عنيفة ! . .

ميرى ماتيوه . . عصفورة باريس الجديدة التى حلقت فى نفس السماء التى شهدت مجد إديث بياف . . تعانى من حالات إغماء مستمرة وإرهاق عصبى يتهددها . . »

ووراء الأزمة قصة غريبة ، تكشف الأساليب الملتوية غير الإنسانية التى تتبع الآن لخلق نجوم الغناء ، والدعاية التى ترفع شعار الغاية تبرر الوسيلة . . ولا يهم أن تكون الوسيلة بعد ذلك من القسوة بحيث تطيح بتماسك إنسان ، أو تقتل فيه مكونات شخصيته . .

الناس فى حاجة إلى الغناء . . وأندية الليل ، والمقاهى وأمسيات العشاق جافة بدون « بياف » . . إن أسطواناتها القديمة تحل « بعض » المشكلة . . ولكن وجودها بعيداً عن مسرح

الحياة ، جعل أصحاب صالات الموسيقى وشركات الأسطوانات يتلهفون على نجمة غناء جديدة تقف فى دائرة الضوء التى وقفت فيها « بياف » من قبل . .

وهنا ظهرت . . « ميريى ماتيو » . . الشابة الشاحبة . . ابنة العامل والأم المجهدة التى تجيد تقليد صوت « بياف » وتسلى نفسها وهى تغسل الأطباق بالترنم بالأغانى التى شهرت من قبل عصفورة باريس . . التى طارت إلى السماء ولم تعد ! . .

ورشحت ميريى لتحتل العرش الخالى . .

وهنا جاء دور الدعاية . . استغلوا أسرة ميريى وصورها وسط أخواتها الاثنى عشر وسفروها إلى أمريكا . . لتظهر فى التليفزيون . .

ومن أمريكا طارت إلى « موناكو » لتقف أمام جريس والأمير رينيه . . و . . آلاف الصور وزعت فى كل مكان . . وريبورتاجات . . وأغلفة مجلات ملونة . . وتكلفت الحملة ٧٠ مليون دولار ونجحت « ميريى ماتيو » . . نجحت فى ترديد أغانى بياف . . والوقوف على عرشها !

وبعد أن أفاقت من حلاوة النجاح . . أرادت أن تستريح . ولكنهم لم يتركوا لها فرصة الواحة . . لابد لها من الظهور بشكل ملح ودائم لتشغل الناس . . .

وأحست بالإرهاق . . وبدأ الإغماء يطاردها فى أعقاب كل حفلة . . وضاقت نفسها بتكرار أغانى بياف . . وضاقت

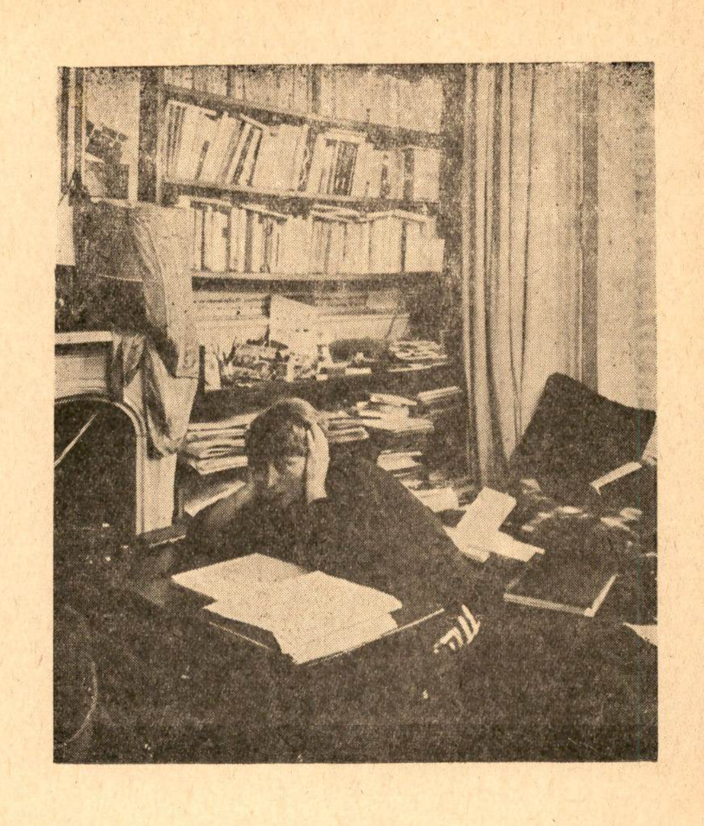
أكثر بالتمثيلية التى أجبرت على أن تقوم بها . . . أن تغنى بأسلوب بياف . . تلبس على طريقتها . . وتعيش حياتها الصاخبة . . فنى أعماقها كانت الفتاة الطيبة الخجول التى تقدس الأسرة وتعيش داخل أحضان أمها تقبل أباها قبل أن تنام . . ولا يضايقها أن تغسل طبقها . . وتتنزه على ضفاف السين مع أخواتها ! . . .

أرادت ميرى أن تغنى أغانيها . . هى . . الأغانى التى تصادف هوى فى أعماقها . . ولكن الملحنين رفضوا . . لأن الذين يلحنون لها هم نفس الذين لحنوا لبياف من قبل ! . .

أما رجال الإعلان . . فقد حرصوا على تأكيد حقيقة قاسية لقد صنعوا نسخة جديدة لبياف . . وعلى ميرى أن تظل هكذا دائماً . . الشبح الحى لعصفورة باريس التى ماتت . لقد أصدروا قرارهم وتناسوا أن التقليد حكم بالإعدام لشخصية جديدة تريد أن تنمو وتتبلور . . فهل تقف ميرى تدافع عن شخصيتها وتواجه العاصفة . . أم ترقد من جديد صريعة للانهيار . لتعيش وتموت فى ثياب . . إديث بياف ؟ !

وردت ميرى على التساؤل فى حفلتها الأخيرة . .

وقفت على المسرح . . وحدها . . والأضواء تغمرها . . وغنت أغنية جديدة بعيدة تماماً عن صوت بياف . . ودوت الصالة بالتصفيق . . ودمعة صغيرة تنحدر من عين « ميرى » . . دمعة من وجد نفسه !



# الفصل التاسع



## كريستيان روشفور..

أريد أن أصرخ . أن أبكى
وأن أركض فى الحقول ! .

كان المساء ممطراً . . وأحسست بالرغبة فى النوم المبكر . . ولكن المطر الذى كان يطرق زجاج النافذة طرد النوم بعيداً . . ووجدت نفسى أفتح الكتاب الذى اشتريته فى الصباح وأعاود قراءة الفصول التى قرأتها منذ سنوات . . . وتمر عيناى على السطور التى سألتقى مع المرأة التى كتبتها فى الغد . . . وبدأت أقرأ :

« استيقظت مبكرة كالعادة . . أحاول التخلص من ذكرى كابوس الليلة الماضية . الكابوس الذى صاحب طفولتى بإلحاح فى أكثر من صورة . . ولكن كلها تدور حول معنى واحد . . عندما أجد نفسى وسط ميدان كبير ، أبحث عن شخص ما ، والتفت حولى . . فتفاجئنى ضحكات الرجال . . وأكتشف مذعورة أنى أرتدى قميصاً شفافاً لا يصل حتى إلى ركبتى » !

هكذا تحكى جنفييف بطلة رواية « راحة المحارب » انطباعات وحدتها . . وهى بعيدة عن باريس يقودها القدر إلى فندق مثير ، فى الوقت المناسب لتقتحم على البطل « دونوسارتى »

حياته وتنقذه من الانتحار فيقول لها هامساً فى لا مبالاة :

« لقد اكتملت الصورة . . وهاأنت ذى الآن مثقلة بمسئولية روحى على كتفك ! »

وتكتشف فى دهشة من نفسها أن « سارتى » هو رجل أحلامها ، لا يمكنها أن تلفظه . . وفى حرارة تصف شعورها :

« يديه . . كنت أريد يديه أن تلمسانى . . أنا مجنونة . . أريد أن أصرخ . . أريد أن أبكى أن أركض فى الحقول . . وأهتف . . أحبه أحبه ! ! . لقد ولدت من جديد تحت وقع نظراته . . أريد أن أكون وحدى معه . . بعيدة عن العالم كله حتى أستطيع أن أنظر إليه . . فحتى عندما نكون فى الشوارع الخلفية . . أحس أنى بعيدة عنه ! » . .

وتتحدث جنفييف عن حبها . . فى حرارة وصدق . . ومن وراء الكلمات تطل الأديبة الفرنسية « كاترين روشفور » ترسم بالكلمات لوحتها الكبيرة عن الحب . . وتلخصها فى جرأة على لسان بطلتها التى تقول :

« لا فائدة من مقاومة الحب . . إن العقل ساعتها ، يبدو صورة من صور الجنون ! »

لقد التهمت فرنسا الكتاب الذى أعيد طبعه . . ووزع أكثر من ٢٥٠ ألف نسخة !

وخطف « فاديم » الكتاب ليصنع منه فيلماً قامت بريجيت باردو ببطولته !

وبين يوم وليلة أصبحت كاترين روشفور ، تحتل المكان الذى تربعت عليه فرانسواز ساجان ، ولاقت قصصها الرواج .. وتطاردها الصحف . . وخطابات القراء . . ويتركز حولها الاهتمام ، والجميع يترقبون كتابها الجديد « وردة من أجل موريسون » .

كان موعدى معها فى تمام السادسة . . وجاءت سكرتيرتها تقول :

« السيدة روشفور تحدثت بالتليفون من الطريق . . أنها تعانى زحام المرور وستأتى بعد لحظات ! »

وبعد دقائق كانت أمامى ، تلهث فى فستان أسود ، وشعرها القصير لونه خدّاع لا تدرى هل هو من تأثير الزمن أم الموضة !

وجرى الحديث بيننا فى سرعة من زحام السيارات إلى زحام البشر . . إلى إنسان العصر الحديث الذى يحاول فى مفترق الطرق أن يقف على قدميه ، وتقول كاترين روشفور :

« هذا الإنسان هو بطل قصتى . . وخاصة قصتى الأولى . . هو إنسان ما بعد الحرب الذرية . . الرجل اليائس الذى يحاول جاهداً أن يخرج من يأسه . . هو أكثر من رمز . . هو بطل عام يعبر عن العصر . . ويعبر عن نفسى . . فأنا حزينة متشائمة ومع ذلك متفائلة فى وجود الإنسان . . وفاعلية هذا الوجود» وأسألها :

— فى روايتك كنت قاسية على المرأة . . لقد جعلت الرجل

يتسامى باحثاً عن الله فى الحب . . بينما المرأة لا تجد فى الحب سوى الرغبة !

ـ لقد أراد فاديم أن يغير الأدوار فى الرواية السينمائية لهذا السبب . . أما فى روايتى . فلقد عرضت صورتين مختلفتين للحب . . داخل الإنسان وخارجه . . الحب الأنانى . . والحب الذى يأخذ ويعطى . .

ـ وهل تغيرت نظرتك الآن ؟

ـ . . بعد خمس سنوات . . وبعد أن تركت الكتابة من أجل الزواج . . عدت للكتابة وتركت الزواج . . أنا أرى الناس . . وأشاهد نفسى وأنا فى التجربة وبعدها دائماً أتساءل . . كيف ولماذا ؟ ! وأدرس نفسى . . ومن هذه المراقبة الذاتية تولد الفكرة .

ـ وكيف ولدت فكرة قصتك الجديدة ؟

تشعل كاترين لنفسها سيجارة . . وترمقنى بعينيها الزرقاوين فى حذر . . ثم تبتسم وقد قررت أن تتحدث :

ـ لقد عشت أشهراً فى رواية طويلة حتى انتهيت وعندما قرأتها لم تعجبنى فتركتها جانباً وبدأت قصتى الجديدة « وردة من أجل موريسون » أتممتها فى ثلاثة أسابيع . . وأعتقد أنها نتيجة للقصة السابقة التى لم أنشرها .

ـ وما موضوعها ؟

وتعود النظرة الحذرة إلى العينين الزرقاوين وتقول :

ـ ولكن القصة لم تظهر بعد .

ـ أنا لا أستطيع أن أنتظر صدورها . .

وأمام إلحاحي تهز رأسها فى استسلام وتقول :

ـ هى رواية تشبه روايات المغامرات . . ولكنها تسخر من واقعنا . . مكتوبة فيما يشبه الكاريكاتير . . فهى قصة بين ثلاثة أطراف . . شابان يحبان فتاة واحدة . . وهى تحب واحداً وتسخر من الآخر . . فتبدو له الدنيا كلها مهزوزة ويصبح نجاحه لا معنى له ؟

وتكتشف كاترين أنها على وشك سرد القصة كلها فتضحك وتقول بسرعة :

ـ اترك لى عنوانك لأرسل لك الكتاب كاملا !

وأحسست فجأة أن شبح الناشر يجلس بيننا يطل عليها محذراً . . فسألتها :

ـ بصرف النظر عن كتابك الأخير . . كيف يكتمل العمل الأدبى بين يديك ؟

ـ عندما أبدأ لاتوجد أمامى خطة محددة . . وإنما الرواية تشكل نفسها بنفسها وتأتى الرموز مختلطة بالواقع طالما كان الموضوع نابعاً من قلبى وإحساسى . . أما إذا كانت الرموز خاطئة . . فتقف القصة . . ولا تكتمل . . وهنا أقف . . وأنتظر ، لا أفتعل ولا أجهد الفكر . . ولكنى أعتقد فى ضرورة تعبير الكتاب عن فكرة . . لابد من الالتزام . . ولابد أيضاً

من البحث عن قوالب وأشكال جديدة تستطيع أن تحمل كياناً حيوياً .. أما مجرد قوالب فنية لاتحتوى شيئاً . . فهذا ما أرفضه.

وتذكرت كلمات البائعة الفرنسية فى المكتبة وهى تعطينى أحد الكتب لكاترين روشفور .

« إنها أحسن كاتبة تعبر عن حواء » .

فسألت كاترين :

— من هى حواء ؟

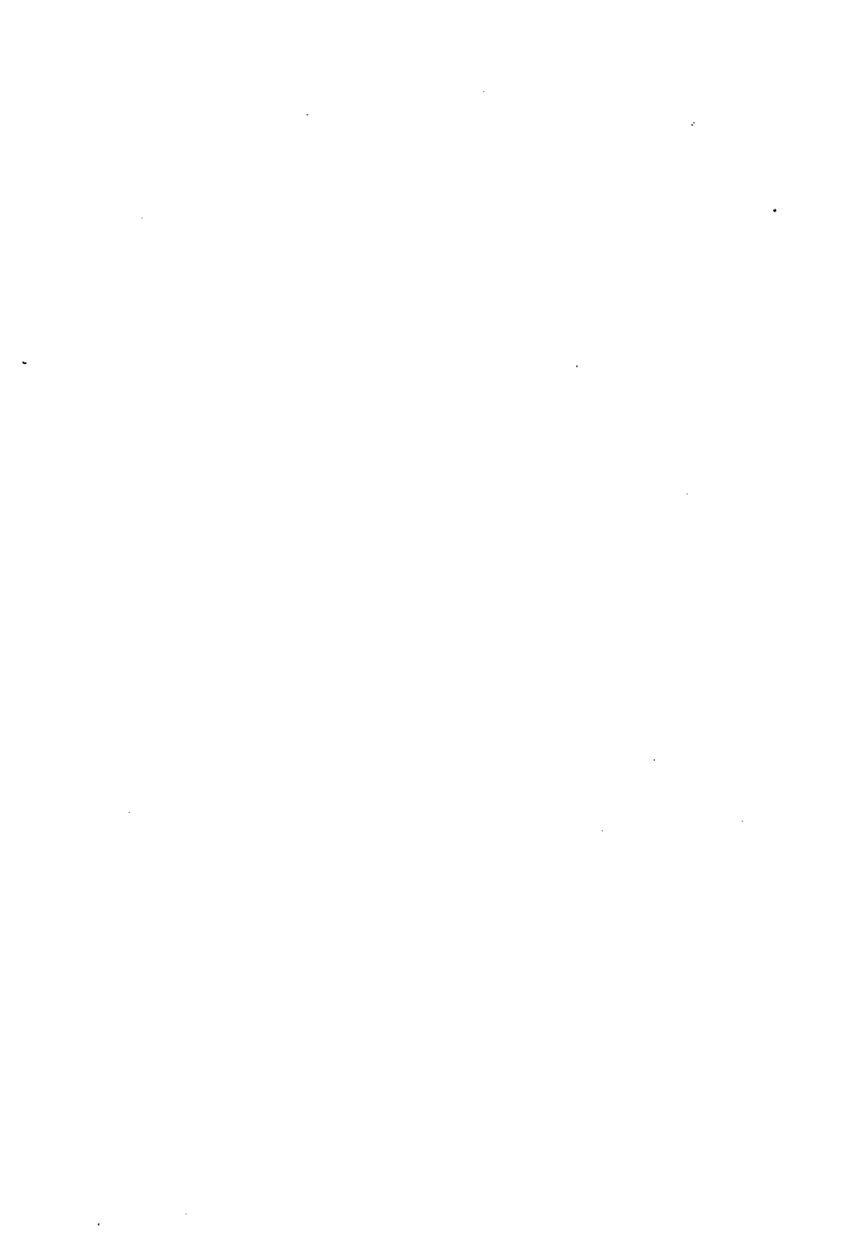
ضحكت طويلاً قبل أن تجيب :

— كنت أحب أن أسألك نفس السؤال . . فالرجل قد يرى من زاويته ما لا أراه . . أنا للآن لم أفهم حواء . . بالرغم من أنى واحدة من بناتها . . كل ما أستطيع أن أقوله إن آدم الحديث أسعد حظاً . . فالفرصة غير متكافئة بين الاثنين . . فهما يعملان معاً . . غير أن المرأة لها عمل آخر هو بيتها . .

وتلتقط « كاترين روشفور » علبة السجاير من على المكتب . . تضعها فى حقيبتها . . ترتدى معطفها . . وتودعنى لتهرب إلى بيت ريفى بنته وسط باريس . تستمع فيه إلى موسيقى باخ . . وتكتب وترسم وتنحت على الحجر . . وتشغل فراغ الأيام القاسية قبل ظهور كتابها الجديد !



# الفصل العاشر



# المرأة وراء الكاميرا

تركنى اللقاء مع كريستيان روشفور فى تساؤل . . إلى أى مدى تؤثر المرأة الباريسية فى الفن والثقافة ؟ ! . . وهل توجد مثيلات لساجان وكريستيان فى الفنون الأخرى ؟ ! . .

فى الفن التشكيلى كانت هناك أسماء . . ومحاولات مختلفة . . ولكنها كلها محاولات مترددة لأسماء ينقصها البريق ، وغالباً ما تستند إلى اسم رجل . . قد يكون صاحب قاعة عرض . . أو ناقداً كبيراً . . أو فناناً معروفاً . . زرت عشرات المراسم والتقيت بالفنانات ولم أصادف واحدة فى الأصالة التشكيلية كـ « مارى لورنسان » مثلاً . .

أما فى مجال السينما فقد برز اسم اثنين من بنات حواء فى عالم الإخراج . . فى نفس الشهر . . ومن حسن حظى أنى كنت أستطيع أن أشاهد تجربة كل واحدة وأحكم عليها . . بلا تأثيرات خارجية . . .

« نادين ترانتينين » بدأت فى المونتاج وانتهت بالإخراج . و « مارجريت دورا » التى بدأت بكتابة السيناريو وانتهت أيضاً بالإخراج .

والواضح فى نادين أنها امرأة جريئة . . فقد كتبت قصة بنفسها ووقفت وراء الكاميرا تصورها وتخرجها . . وتحرك فى دور البطولة لقصة الحب المثيرة زوجها الممثل « جون لوى ترانتينين » ! . . ثم تستطيع فوق كل هذا أن تقنع لجنة مهرجان كان بأن يمثل فيلمها فرنسا بين الدول المشتركة !

الفيلم كله عرض صريح ودقيق لعلاقة حب بين زوجين الزوج مهندس يعمل فى نيس والزوجة مقيمة فى باريس . .

إنهما يلتقيان مرة كل أسبوع . . فى لقاء عابر . . يجعل علاقاتهما أشبه بعشق سريع لايترك مجالاً لمعرفة حقيقة أو تفاهم .

ولكنه يحب هذه الحياة ، لأنها تعطيه القدر الأكبر من الحرية التى يريدها لنفسه وعمله . . بل حبه أيضاً . . فالحب عنده ليس امتلاكاً أو سيطرة بقدر ما هو استمتاع وحرية !

أما هى فتقف على الهامش . . مترددة . . تخشى حتى أن تقول له بأنها تنتظر منه ابناً ! ! ولكنه فى النهاية يدرك أنه فى حاجة ماسة إليها . . إلى معرفتها فى عمق ، فيكتب لها تلغرافاً ، وتسرع إلى لقائه ، وعلى المحطة يلتقيان ويدور بينهما هذا الحوار :

— هل تنتظر امرأة ؟

— نعم ولكنها لم تحضر . . وأنت ؟ !

— أنا أنتظر رجلاً لم يأت . .

— إذن . . تعالى نبحث عنهما !

وتبتعد عنهما الكاميرا فى بطء وهما يتبادلان التعارف لأول مرة !

وبالرغم من الكياسة والذوق – بل الاتزان – التى يتصف بها عادة مشاهدو أفلام المهرجان، وغالبيتهم من النقاد والصحفيين المعروفين . . حدث بعد عرض الفيلم مفاجأة عجيبة . .

لقد دوت القاعة بتصفيق عنيف وفى الوقت نفسه انتشر صفير استهجان مزعج ! لقد انقسم الجمهور على نفسه فى تفسير مشاهد الحب التى أغرقت بها المخرجة نادين ترانتينين فيلمها . ( حبى . . حبى ) وبطله زوجها جون اوى .

إن عرض التفاصيل العارية للحب بلا مواراة وفى بطء شديد . . اعتبره البعض نوعاً جديداً من الفن . . بينما أثار ضيق البعض الآخر . . انقسم الجمهور كثيراً فى تحليل أسلوب نادين فى الإخراج .

الصمت الطويل . . بطء الإيقاع . . وتكرار بعض اللقطات .

وأنظر إلى نادين من خلال دخان سيجارتها . وأتساءل : أى جديد قدمته هذه المرأة إلى السينما ؟

لقد استخدمت العدسة البعيدة . . وهو أسلوب ظهر من قبل . . ولكنها تقول :

– إن العدسة البعيدة .. تعطى للممثلين إحساسهم بالانعزال فيندمجون فى الدور إنها لا تتطفل عليهم . . وإنما تراقبهم من بعيد !

— هل تغيرين السيناريو أثناء التصوير ؟ !
— لا . . أنا التى كتبت السيناريو . . ولذلك ألتزم به .

ويظل أحد مشاهد الفيلم يطاردنى . . إنه لقطة لأحد الأبطال ، يفتح باباً ويدخل لمقابلة البطلة . ولقد تكررت اللقطة خمس مرات متتالية . . يفتح البطل الباب ويدخل . .

— طبعاً لم أكتب هذا المشهد فى السيناريو . . ولكنها لقطة أعيد تصويرها ٥ مرات وأثناء المونتاج وجدت أن من الممكن وضع اللقطات الخمس متتابعة فتوجد إحساساً بالقلق !

هل هذا المشهد مفتاح لأسلوب جديد فى السينما . . أم هو المفتاح لشخصية المخرجة يعكس إحساسها بالقلق ، وحرصها الغريزى كامرأة على الاستفادة من كل شىء .

على أى حال لقد نجحت نادين فى أن تصنع من نفسها علامة استفهام . . وتجلس على كرسى الإخراج . . وتختار لزوجها البطلة التى سيقبلها ، لقد وجدت لنفسها مكاناً فى عالم كان مقصوراً على الرجل . .

أما « مارجريت دورا » . . فقد كانت مشغولة بوضع اللمسات الأخيرة لفيلم أكثر جرأة فى أسلوب إخراجه . . .
والقصة محصورة بين رجل وامرأة معاً فى حجرة مغلقة . . .

الرجل يدخن فى عصبية . . والمرأة تخفى دموعها بجوار النافذة . . والوقت يمر . . فى دقائق طويلة مثقلة بالمرارة .

الرجل يتحدث . صوته حزين وشفتاه ترتعشان بجمل مجروحة . .

والمرأة أنفاسها تتتابع كأن قلبها يختنق . . وعيناها مغرورقتان بالدموع الحبيسة .

وهكذا يبدأ الفيلم من النهاية . التى تنتهى عندها عادة بعض الأفلام ذات النهايات الحزينة . . عندما تقرر البطلة أن تترك البطل إلى الأبد !

ولمدة ٤٥ دقيقة نرى مشهداً واحداً . . فى حجرة لا تتغير ونعيش اللحظات المريرة القاسية التى تسبق الانفصال . . عندما تبكى الكلمات ويتحدث الصمت فى قسوة بليغة .

ولكن هل يقبل المتفرج هذه القسوة ؟ وهل يستطيع المشاهد أن يعيش ٤٥ دقيقة من المرارة المتتابعة مع بطل يتعذب وبطلة تحترق فى صمت . . وخاصة فى بداية الرواية ؟ !

وإلى أين تقود الجرأة الفيلم ؟ إلى نجاح فنى باهر . . أو فشل منقطع النظير ؟

إن مخرجة الفيلم مارجريت دورا نفسها تضع يدها على قلبها ولا تخفى خوفها من احتمالات الفشل :

ـ خسارة أن يفشل الفيلم . ففشله سيخيف المنتجين ويجعلهم يترددون فى إنتاج فيلمى الثانى ، فى الوقت الذى أكون فيه قد ازددت خبرة بفن الإخراج وتوجيه الممثلين !

ومارجريت تدخل باب الإخراج لأول مرة بعد أن ظلت

لسنوات كاتبة سيناريو ناجحة لمجموعة من الأفلام الممتازة .

والإخراج قد جعلها أكثر عصبية ، وأكثر خوفاً وحذراً خاصة من الصحفيين ، إن وجود صحفى فى البلاتوه يقلقها فتقول :

« إن صحفياً فى البلاتوه يعطينى الإحساس بأن هناك من ينظر من وراء ظهرى إلى ما أكتبه . . وهو إحساس غير مريح » .

ولكن مارجريت دورا ليست من السذاجة لتدخل مغامرة الإخراج بلا حذر ! . فهى وإن كانت قد اختارت موضوعاً جريئاً لتبدأ به . . فهو أيضاً الموضوع المثير للاهتمام خصوصاً فى أوربا القلقة التى تهتز فيها العلاقات الزوجية وتضطرب فى عواصف الملل والضيق .

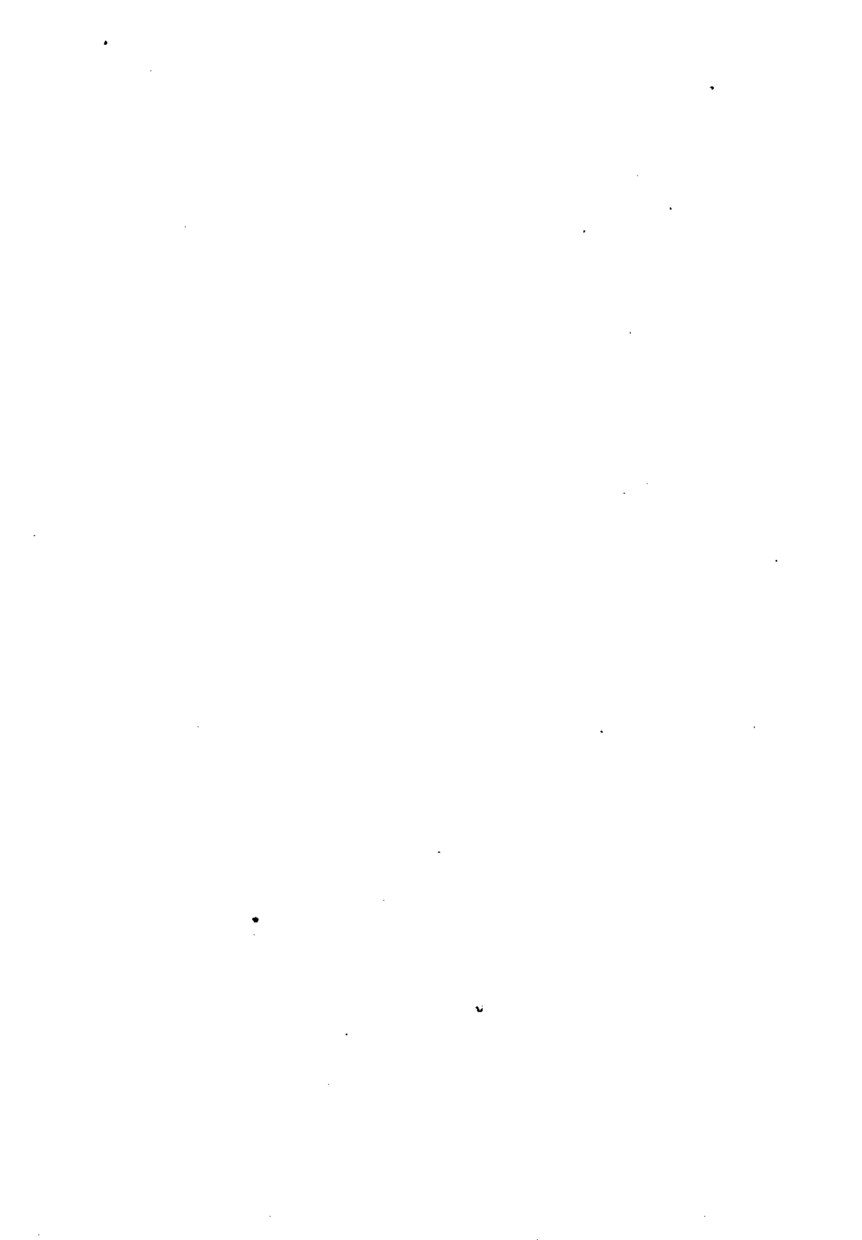
وهى وإن كانت قد اختارت وجهاً جديداً هو وجه « جولى داسين » . فهذا الوجه الجديد ليس مجرد ملامح جميلة وجديدة تغزو بها مارجريت الشاشة . . ولكن وراء جولى خبرة واسعة ورثتها عن « جول داسين » أبيها المخرج المعروف مخرج فيلم « أبداً الأحد » !

وعلى الرغم من محاولة حواء المخرجة أن تقف فى دائرة الضوء فلقد استطاع آدم رغم ذلك أن يسرق منها الكاميرا !

إنه مخرج ، لم يكن معروفاً اسمه « ريفت » . . والحديث عنه وعن فيلمه « الراهبة » الذى أثار زوبعة عالمية يستحق فصلاً خاصاً . .



## الفصل الحادي عشر



# أزمة الراهبة

كان الجمهور يتابع الشاشة فى اهتمام بالغ ، وصمت رهيب . . الفيلم محكوم عليه بالإعدام ، يعرض لأول ولآخر مرة !

ومع كلمة النهاية ، ارتفعت التعليقات المكتومة ، وتحولت الهمهمة إلى لغط كبير ، وخرج الناس تصحبهم تعليقاتهم فى طرقات كان ، وفنادقها ونواديها الليلية !

و بعيداً فى ركن من صالة العرض ، بعد أن خرج الجميع ، جلست أتحدث مع مخرج الفيلم جاك ريفت . مخرج « الراهبة » و بطل « الفضيحة الفنية » كما تلقبه الصحافة البار يسية !

وكنت أنظر إلى وجهه الحليق المرتخى الملامح . . كأنه قد أفاق من النوم تواً . . وأكاد لا أصدق أن صاحب هذا الوجه قد أطلق القنبلة التى انفجرت فى الكنيسة والرقابة وتحمل اسم « الراهبة » . . و رأى الفيلم الذى استمر فى إعداده ثلاث سنوات يمنع نهائيًّا من العرض داخل فرنسا وخارجها — وهو إجراء حاد نادر الحدوث ! أثار التساؤل وكلف المنتج خسارة بلغت مليونى جنيه !

وها هو ذا نفس الفيلم الممنوع يعرض فى مهرجان كان

العشرين . وسط الأفلام المختارة وبإذن من وزير الثقافة الفرنسى نفسه « أندريه مالرو » !

ولكن هذا الإذن الخاص لا يستبعد عن الفيلم قرار المنع وإنما يستثنيه لحفلة واحدة محدودة الجمهور . . هى الأولى والأخيرة فى نفس الوقت ! . . هل كان ريفت راضياً بالزوبعة التى خلقها والشهرة التى أحاطت باسمه ؟ ! استمعت إليه يحدثنى فى حرارة :

— « صدقنى لم يكن عزمى أبداً إثارة الناس ، أو إثارة الرقابة . . . وكل ما أتمناه أن ينسى الناس ما حول الفيلم ويتحدثون معى عنه كعمل فنى . . قد شاهدت الفيلم معنا فما رأيك فيه ؟! »

واسترجعت مشاهد الفيلم التى تحكى قصة سوزان سيمونين المأخوذة من كتاب « ديدرو » المعروف . . الفتاة الطيبة التى تدخل الدير تحت سيطرة أم فاسدة ، ومدفوعة ضد إرادتها ، لتصطدم بثلاثة نماذج لرئيسات الأديرة . .

الأولى دومونى . . المتعبدة . . التى تمد لسيمونين يد المعونة ، وتموت لتتركها لسانت كريستين الصارمة التى تتركها تنهار تحت قدميها وهى تلعن الشيطان الذى اعتقدت أنه قد حل بجسدها وتمنع عنها الفراش والطعام فى قسوة عجيبة . . لا ينقذها منها سوى نقلها إلى دير مدام دى شيل ولكنه دير غريب . . الحرية فيه واسعة تبيح المحرمات ! . وسيمونين ليست فاسدة . . كل ما تريد هو استرداد نفسها والحرية التى فقدتها . . وتجد اليد التى تساعدها فى القس « دون مورل » . . وبعيداً عن الدير يهربان

معاً . . وتفيق سيمونين على واقع مرير . . إن اليد التى ساعدتها على الفرار تلتفت لتطوقها فى رغبة . . فلا مفر من الفرار . . ولكن إلى أين ؟ . فالحياة قد ضاقت بها . . وهى قد ضاقت بالحياة . . ولا أمل . . يدفعها إلى البقاء . . فتنتحر . . قلت لريفت :

– لا شك أن أسلوب الفيلم بسيط واضح بعيد عن الإثارة أو التكلف . . ميال للميلودرام بلا مبالغة . . دقيق فى إظهار العصر الذى وقعت فيه الأحداث .

ويقول ريفت :

– إننى و « جرينولت » الذى حوّل قصة ديدرو إلى سيناريو كنا نأمل أن تساعدنا قصة حدثت فى عام ١٧٦٦ أن نتقبل أكثر حياتنا فى عام ١٩٦٦ ، ويرى الناس أن عصرهم الآن أفضل من العصور السابقة . . ومع ذلك فقد فهم بعض الناس خطأ أننى أتهجم على التقاليد الدينية . . لم يكن هدف الرواية أو الفيلم إظهار فساد أو قسوة رئيسات الأديرة . . . وإنما عرض قضية حرية الاختيار . فلو أن سوزان سيمونين أعطيت لها حرية الاختيار لما واجهت هذه النهاية المحزنة ! بل لقد تعمدت أن لا أوجد بطلاً أحمله كلام المؤلف وأفكاره . . ولقد حذفت الكثير من المشاهد التى قد توحى بمعان مباشرة تمس الأخلاق . .

– لقد تعمدت تغيير نهاية الفيلم أيضاً . . فبينما البطلة فى

الرواية تكتب خطاباً إلى صديقها المركيز تنشد النجدة . . تلقى بنفسها من النافذة وتنتحر فى الفيلم . . فما السبب ؟ !

— لقد أخذت فكرة الانتحار من جملة فى الكتاب على لسان سيموزين تقول فيها— أنا خائفة . . فى كل خطوة «أكتشف هوة تحت أقدامى » فهى كانت تتوقع مثل هذه النهاية !

— ولكن لماذا استخدمت طريقة القطع ، وألغيت الزمن ؟

— إن الفيلم كله بطىء الإيقاع ، كلاسيكى الخلفية ، فكان لابد من إيجاد تضاد يعطى حركة سريعة . .

— ما الذى تهدف إليه فى أسلوبك ؟

— أن أنسى السينما وأنا أعمل من أجلها . . أريد أن يكون عملى بسيطاً وواضحاً .

— ومن الذى يعجبك من المخرجين ؟

— يعجبنى القدامى جداً . . والمحدثين جداً . .

— وفيلمك القادم ؟

— أحلم بفيلم غير مأخوذ أو مقتبس من قصة معروفة وليس عن الله . . أو الشيطان . .

— هل تعرف نفسك ؟

ويبتسم ريفت قبل أن يجيب :

— أنا هادئ فى مواجهة العالم الخارجى ، ثائر مع نفسى . .

وينهض ريفت ، الرجل الهادئ الذى أثار زوبعة « الراهبة » يحجز لنفسه تذكرة على الطائرة إلى باريس . . ويتوه وسط

زحام الجمهور الذى كان لا يزال يناقش فيلمه .

وبينما يبتعد « ريفت » ليتوارى بعيداً عن الزوبعة التى خلقها . . ويبذل المنتج محاولات يائسة أخيرة لعرض فيلمه . . يلمع اسم « آنا كارينا » البطلة . . وتظهر على أغلفة المجلات . . تركب عجلتها الحمراء مرتدية ميني جوب ضيق ومثير . . وتستند إلى إعلان الفيلم الذى تظهر فيه راكعة تصلى فى ملابس الراهبة ! . . .

ولا تفوت «جون لوك جودار» فكرة استغلال الفرصة أيضاً . . فيعطيها دوراً فى فيلم « الحب على مر العصور » الذى يصور فيه جودار مرحلة الحب فى عام ٢٠٠٠ . . لقد اختار مخرج الموجة الجديدة نفس الثالوث التقليدى ، البطل .. والبطلة .. والشرير ، والبطل هو جاك شاريبه زوج ب . ب . السابق . . والبطلة هى بطبيعة الحال « آنا كارينا » الحائرة بين شاريبه والرجل « الإلكترونى » التى كانت طول عمرها تتمناه . . الرجل الذى يستجيب لطلباتها بلا تبرم . . يكفى أن تضغط زراً . . فيشترى لها هدية . . وتضغط زراً آخر فينشد لها أبيات الشعر . أو تضغط زراً ثالثاً فيركع تحت قدميها ويغنى لها أحدث الأغانى العاطفية !

وبينما المصنع يجمع أجزاء جسد البطل الإلكترونى . . كانت شركة الدعاية تصور « آنا كارينا » فى ملابس الفيلم المثيرة آخر صيحة لعام ٢٠٠٠ . . ومرة أخرى تضع فى الخلفية صورتها فى ملابس « الراهبة » !





## الفصل الثانى عشر



# ماذا بعد الموجة الجديدة ؟ !

ولكنى سأتوقف لحظة عند فيلم « الحب على مر العصور » .. إن إلقاء بعض الضوء عليه يكشف الصراع المميت الذى تخوضه السينما الفرنسية من أجل منافسة التليفزيون . . .

« والحب على مر العصور » دراسة بالصور والوثائق لاقت نجاحاً كبيراً فى المكتبات واعتبرت مرجعاً لكل ما يمس أقدم علاقة إنسانية ولدت مع الخليقة لتدفع الحياة إلى الاستمرار .

وقد شجع اهتمام الناس بهذه الدراسة مجموعة من المخرجين إلى تقديم فكرة مماثلة للسينما . . وحوّلوا الحب على مر العصور إلى فصول سينمائية ، يتولى كل مخرج إخراج الفصل الذى يثير اهتمامه .

والفكرة فنية وتجارية . . ففى حشد كبير من المخرجين والممثلين مجالاً للتنافس . . وفى نفس الوقت إغراء للمتفرج الطماع الذى يشاهد مجموعة من القصص ويلتقى مع عدد كبير من الممثلين ويجد فى النهاية مجموعة من المخرجين فى خدمته !

إن محاولات مختلفة ولدت بعد الموجة الجديدة التى أصبحت اليوم قديمة نسبيًّا . . محاولات تهدف إلى شد المتفرج إلى دار العرض والعمل على خروجه من بيته حيث التليفزيون والدفء ...

وزجاجة النبيذ ! . . . .

إن دور السينما تعرض بشكل متواصل أفلاماً قديمة وحديثة .. تستطيع أن تشاهد فيلم « الباخرة بوتومكين » وتعيش مع العمل الخالد للمخرج الروسى إيزانشتين .

وتستطيع أن تعيش فى فيلم « الجميلة والوحش » مع فن جون كوكتو وخيالاته وإخراجه المثير . . فى نفس الوقت الذى تعرض دار سينما ثالثة على بعد خطوات آخر أعمال « جون اوك جودار » أو « لولوش » . . وهكذا على مسافة أمتار . . تعيش السينما الصامتة . . والموجة الجديدة . . ولكل فيلم جمهوره . . والمتهافتين على « الباخرة بوتومكين » لا يقل عددهم عن رواد « كوكتو » . . أو « جودار » وفيلم « أونيبادا » اليابانى يستمر عرضه اثنى عشر أسبوعاً متوالياً فى حى واحد وسينما واحدة فى سان ميشيل . . . ولا يجد الناس غضاضة فى متابعة اللغة اليابانية الغريبة ولا الأحداث الجنسية الصارخة بالإثارة والغرابة الوحشية . . فى نفس حماسهم لتتبع افلام « فرنانديل » أو « نورجس » !

وهذا التنوع فى المادة المعروضة . . يجعل السينما دائماً تسلية مفيدة لا تفقد جمهورها . . . وهنا تبذل السينما الفرنسية كل جهودها لتجدد نفسها باستمرار لتشد هذا الجمهور وتجمعه لنفسها . . .

لقد جاءت أفلام « الموجة الجديدة » بما فيها من أفكار

جديدة وإيقاع سريع . . ومونتاج مبتكر لتشد الجمهور الذى تعود على أفلام الميلو دراما والمطاردات الأمريكية . . . وفعلاً لقد أفلح فيلم « بيير و المجنون » على منافسة « جيمس بوند » فى سينما ملاصقة واستمر عرض « بيير و المجنون » عشرة أسابيع . . وتغير فيلم « جيمس بوند » فى الأسبوع السابع ! . . هذا بالرغم من صعوبة أسلوب فيلم جودار . . الذى حول قصة بوليسية بطلها « جون بول بلموندو » إلى ما يشبه « الأوب آرت » السينمائى . . محاولاً أن ينافس نفسه ويخرج من أسلوبه الجديد إلى أسلوب أجدد !

وهذا ما يدفعه إلى محاولته فى التعبير عن الحب سنة ٢٠٠٠ فى فيلم « الحب على مر العصور » . . لعله يجد مجالاً جديداً لخياله وأمانيه الفنية . .

وهى الرغبة فى التجديد أيضاً التى جعلته يبدأ تجربة أوسع فى الفيلم الذى أطلق عليه « بعض ما أعرفه عنها ! » وأسند بطولته إلى النجمة « مورينا فلادى » التى لا تحفظ دورها فى الفيلم . لسبب بسيط هو أن جودار نفسه منع عنها سيناريو الفيلم عن تعمد . . ويكتفى بأن يحكى لها قبل تصوير كل مشهد « مضمون » المشهد . . ولا يطلب منها أن تحفظ كلمات الحوار . . وإنما يترك لها حرية التعبير كاملة فى اختيار الجمل والألفاظ المناسبة للموقف الذى تمثله !

هل هناك فلسفة خاصة وراء هذا الأسلوب الذى يتبعه

جودار ؟ ! هل هى مدرسة جديدة . . أم ( تقليعة ) فنية للفت النظر إليه مرة أخرى ، هو الذى تعود دائماً أن تحتل صورته وأخباره الصدارة فى مجلات الفن . . وتثير أفلامه زوابع متتالية من المناقشات ؟ !

إن مورينا فلادى التى تشترك لأول مرة فى هذه التجربة العجيبة ترد فى حماس و إيمان وتؤكد أن هذا الأسلوب الذى يتبعه جودار ، يعطى الحوار صدقاً وواقعية و يجعل المشهد قطعة من الحياة . . . ! فهى لا تعرف عن قصة الفيلم إلا الإطار العام لشخصيتها كزوجة طماعة لرجل فقير ، تبتذل نفسها من أجل فستان تشتريه !

وهى المناقشات التى تدور بينها وبين المخرج التى تكشف لها يوماً بعد يوم طبيعة الرواية فتنمو الأحداث تباعاً وبشكل طبيعى يجعلها « تعيش » الدور وتشترك فى بناء الشخصية التى تمثلها ، وتعطيها الكلمات والتصرفات التى تصدر عنها « هى » شخصياً فى المواقف المشابهة !

إن جودار الذى اشتهر بأسلوبه الخاص و « نقلاته » المميزة من مشهد إلى مشهد . . واستعانته بالفن التجريدى « والأوب آرت » يحاول فى هذه التجربة أن لا يحمل شخصية واقعية تعيش وتتحرك خلال المشاهد .

بعض الخبثاء يعلقون بأن ثقة جودار فى مورينا فلادى . .

ليست ثقة فنية فقط ولكن وراءها حباً قديما ولد مع أول فيلم اشتركا فيه معاً !

وتبقى فى النهاية حقيقة واضحة ، وهى أن الجمهور يجد « فكرة جديدة » تدفعه لمشاهدة الفيلم ومناقشتها ومعرفة أى مدى من النجاح وصل إليه المخرج فى تحقيقها . . وتكون الحيلة قد نجحت ويظل ( الفيلم الفرنسى ) فى دائرة الضوء . . ومحط الاهتمام . . وقادر على منافسة التليفزيون . . بل قادر على منافسة غيره من الأفلام ذات الجنسيات المختلفة . . .

لذلك ليس غريباً أن تظهر من فرنسا موجة أجدد من الموجة الجديدة !

إن محاولة البقاء . . هى التى تحرك الأفكار . . . والبقاء فى القمم الفنية يثير دائماً الحماس ويدفع روح المنافسة إلى اجتياز كل العقبات وطرق كل الأساليب الغريبة التى ترقد نائمة فى باطن الغيب حتى تجد من يوقظها ويخرج بها إلى الجمهور !





# الفصل الثالث عشر



## اشتر السعادة بفرنك واحد !

هرب القطار من محطة الشمال معطياً ظهره إلى باريس فى طريقه إلى أحضان الريف الفرنسى . وتغيرت الصورة تماماً !

دخل اللون عينى بعد أن تركت باريس ! اختفى الرمادى واختفت البيوت العابسة ، أحاطنى خضار الغابة والحقول من كل جانب .

لم أعد فى باريس ولكن فى فرنسا ، على وجه التحديد فى قرية صغيرة اسمها « كليرمون » أو كما يلقبونها : « قرية الضياء».

من المحطة إلى الشارع الرئيسى تقف الأشجار على الجانبين تنحنى أحياناً وتتعانق أحياناً . وترسم مدخلاً شاعرياً لحياة جديدة .

إن إيقاع الحياة يتغير تماماً فى القرية الفرنسية ! إذا كانت باريس هى قلب فرنسا وعليها أن تنبض فى سرعة واستمرار فإن القرية الفرنسية سواء على الجبل أو الساحل أو فى أحضان الغابة هى الذراع النشيطة القوية . تعمل وتكد ، لكنها تعرف أيضاً معنى الحنان الحقيقى ولحظات الاسترخاء !

فى القرية تستطيع أن تعبر الطريق ولا تموت تحت عجلات عربة . تستطيع أن ترفع وجهك فترى السماء التى تحجبها عنك

بيوت باريس، تستطيع أن تتفاهم بلغة غير لغة الفرنكات . أن تجد من يدلك على عنوان . أن تسمع صوت ضحكات الأطفال . أجراس المدرسة . ثمار التفاح وهى تسقط !

أولاد هنرى يمرحون فى حديقة ألفونس . أطفال ألفونس يجمعون الورد من حديقة هنرى بينما هنرى وألفونس معاً فى عربة ستروين تحملهما فى الثامنة صباحاً إلى مصنع الزجاج فى « سان جوبان » حيث يعملان معاً ويعودان معاً كل يوم !

قال لى فرانسوا المزارع العجوز وهو يقدم لى باقة من الورد ويرد على سؤالى :

– إننا نعيش الحياة . أما فى باريس فإن الناس يموتون واقفين !

ثم يبتسم فرانسوا ليحدثنى عن كل ما يحبه فى الحياة :

– أولادى الستة . الورود التى أزرعها . سيجارة الجيتان التى أدخنها بعد العمل .

صحيفة « كليرمون » الصباحية البسيطة مثل كل صحف القرى . افتتاحيتها دائماً جولة سياحية . إعلاناتها غالباً مكررة ، ولكن فى ذلك الصباح كان المزارع العجوز يقرأ فى اهتمام حكاية الصبى الصغير الذى ذهب يمشى ٢٤٠ كيلومتراً باحثاً عن كلبه ماتو الذى هرب إلى سان كونتان !

ولكن هل تتغير الصورة من قرية إلى قرية ؟ !

تركت كليرمون إلى أونساك . . أو شانتى . . وكريل . .



وإيرمونفيل وتنقلت فى قرى الواز . . ولم تختلف الصورة كثيراً .. الناس كلهم مثل فرانسوا . . ملامحهم تشترك فى أكثر من خط . . وطباعهم تربطها ميول واحدة .

حتى الغابات التى تغلف كل قرية . . تنمو فيها كلها أشجار متشابهة ، وتنبت فيها ورود واحدة . وتمرح فيها كلها نفس أنواع الغزلان ! لعل الشىء الوحيد المتغير هو أسماء العشاق المحفورة على جذوع الأشجار ! !

ولكن هذه الأسماء معظمها لعشاق باريس الذين يأتون فى أيام الآحاد بعرباتهم . مزودين بالساندوتشات وزجاجات البيرة . والرغبة الدافئة فى نسيان ضجيج المدينة وقضاء اليوم بين الخضرة . بل لعلهم فى الواقع يرجعون القهقرى إلى أيام آدم وحواء ، ويضيعون عن عمد فى الغابات . . يرقصون على أنغام الترانزستور أو يختلسون القبلات . . ثم يفيقون على الغروب . فيسجلون تاريخ اليوم على الشجرة التى ظللت الحب ورعته طوال النهار ، ويرسمون القلوب حول الأسماء التى تنزف شوقاً ورغبة !

ثم يشترون فى طريق العودة زهور البنفسج . . قبل أن ينقلهم الطريق إلى باريس . .

« وزهور البنفسج » فى باريس لها معنى الحب . . وتحمل فى لونها الشاعرى جاذبية لا تقاوم . . أما فى الريف فهى تصنع طعام العشاء لأكثر من أسرة تعيش من جمع زهور البنفسج من الغابة وبيعها للعشاق . .

على طريق « شانتيه » كان الأطفال يلتهمون الآيس كريم الشهى الذى اشتهرت به شانتيه . . . وعلى مقربة وقفت امرأة عجوز ترفع يدها بالباقات الصغيرة للعربات المنطلقة . . ولكن العربات لا تقف . . وتقول لى المرأة فى حزن . . وأنا أشترى منها باقة :

« إن العربات لم تعد تتوقف الآن . . لقد عرف العشاق طريق الورود فى الغابات . . وأصبحوا هم الذين يجمعونها ! »

وأحمل الباقة التى دفعت فيها فرنكا . . وأسير بها فى الطريق وصوت المرأة العجوز يطاردنى وهى تنادى :

« البنفسج الجميل . . البنفسج الجميل . . فرنك واحد . . اشتر السعادة بفرنك واحد . . بفرنك واحد فقط ! »

وضحكت داخل نفسى . وأنا أفكر فى هذه السعادة السهلة التى يشتريها الإنسان على قارعة الطريق بفرنك واحد . . ! وكان المساء قد أقبل . . وجاء النسيم يحمل إلىّ رائحة الخبز الطازج . . يحمله العائدون إلى منازلهم . . ويمسكونه فيما يشبه العصى الطويلة . . وشعرت برغبة لا تقاوم أن أشترك معهم أنا الآخر . . إنه إحساس جديد تماماً لا يمكن أن أواجهه فى باريس التى تجعل تناول الطعام فى محلات « السيلف سيرفس » أو « اخدم نفسك » . عملية آلية تبدأ بالسير فى طابور ضيق وتنتهى بالخروج من باب ضيق ! . .

وابتعت رغيفاً طويلاً . . وابتسمت صاحبة المخبز وهى تشاهد باقة البنفسج فى يدى . . وهمست وهى تناولنى الرغيف :

« ما أجمل الزهور التى تحملها يا سيدى ! »

ولهذه اللحظة لم أكن قد تنبهت أن الباقة فى يدى لابد أن تثير التساؤل أو على الأقل تعطينى صورة عاشق فى الطريق إلى موعد غرامى !

ووجدت نفسى أضع الباقة أمام صاحبة المخبز . . وأنا أقول :

— إنها لك يا سيدتى . . .

وصعدت الدماء إلى وجنتيها وقالت فى سعادة :

— شكراً . . شكراً إنها ورودى المفضلة أيام شبابى . . قبل أن يسقط الثلج على رأسى !

وتركت المرأة العجوز والدماء على وجنتيها . . وتذكرت كلمات البائعة . . لعلنى قد اشتريت السعادة بفرنك واحد فقط . . وتركتها فى ذلك المخبز الصغير !

إن القرية الفرنسية لم تفسدها المادة بعد . . والقلوب الطيبة تسعدها الكلمة الطيبة . أو حفنة من زهور البنفسج . .

إن السعادة بفرنك واحد فقط . . لأن طبيعة البشر هناك تختلف . . طبيعة قنوعة مؤمنة تعيش تقاليدها ، تحترم الأب وتقدس الرب لا تعرف الطمع ولا تقلقها التطلعات ، ولاتحاصرها الإعلانات المثيرة للعربات آخر موديل والأزياء المجنونة . . .

والقرية الفرنسية ، تتابع الموضة على شاشة التليفزيون وفى السينما ولكن بنت السادسة عشرة ، تحس بالارتباك إذا ارتفع ثوبها قليلاً فوق الركبة تحت إلحاح نسمة شقية ، وهى لا تحلم بأن تكون لها شقة خاصة . . وإنما أحلامها كلها تنسج خيوطها من أحلامها القديمة مع قريبها الشاب الذى كبرت فى حبه . . وتعلم — كما يعلم الجميع — أنها ستتزوجه فى يوم من الأيام . . . إنها غالباً تصنع أثوابها بنفسها فيما عدى ثوباً واحداً تسافر من أجله إلى باريس — هو ثوب زفافها !



# الفصل الرابع عشر



# ليل باريس

اللون الأخضر يتوه فى الظلام . . والقطار يعود بى إلى محطة الشمال . . إلى باريس . . ورحلة الريف الفرنسى طعمها الحلو فى نفسى كالخبز الطازج . .

وكنت أخطو فوق الرصيف ويخالجنى الإحساس بأن هناك من ينتظرنى . . وأكتشف أن ابتعادى فى الريف ، زاد فى وجدانى – بدون أن أدرى – الرغبة فى لقاء جديد . . مع باريس ! . وأذنى التى عاشت فى الهدوء . . حنت من جديد إلى الصخب . . وعينى التى تعودت الحقول النائمة فى الاخضرار . . تطلعت تبحث عن الأضواء التى تجرى فى الألوان المجنونة فى واجهات المسارح ودور السينما . . وملابس حواء الباريسية . . واكتشفت أن التناقض ليس فى نفسى . . فكل أهل باريس يذهبون إلى الريف بحثاً عن الهدوء فى نهاية الأسبوع ويعودون هادئين ليلقون بأنفسهم فى أمواج الصخب . . وفى الدوامة التى لا تهدأ ولا تنام . . وكان الوقت يجرى إلى العاشرة مساء . . وحى « بيجال » الشهير يفتح ذراعيه . . وتتحرك فيه الأضواء كقوس قزح ولد فى الليل . .

ولا رغبة عندى فى النوم .

« بيجال » تسهر وتدعونى لمشاركتها السهرة !

وهناك دعوات وهمسات لكل شاب يسير وحده على رصيف بيجال .. صور علب الليل تغريه بحسناواتها . . رائحة « البرجيز » فى المحلات تداعب جوعه . . إعلانات السينما ، تقدم له كل غريب مثير . . حتى مكتباتها تفرد كتبها بأشكال خاصة ، وبذوق غريب ، وتدور كلها حول عالم من المحرمات . .

ويمتد بى المشى .. ويمتد بى الليل .. وتبتعد بيجال بأضوائها وأصواتها وهمساتها . .

ولكن ما زال فى الليل بقية . .

وما زالت خطواتى نشيطة . .

وثمة رغبة تداعبنى . . لقد شاهدت كل ما على أرض باريس . . وبقى أن أرى ما تخفيه فى أعماقها . . فى كهوفها !

ووجدت قدمى الطريق . . .

وفى كهف . . .

يموت الليل حول لهب شمعة . .

وحلقات الدخان ترقص أمام اللوحات التجريدية !

ومجموعة أصوات تختلط . . تعلو مع الصخب . . وتتلاشى فى الهمس . .

يد تعبث بأوتار جيتار . . والمغنى الشاب جاك ديترون يغنى :

« لقد قرأت كل ما كتب . .

« وشاهدت كل ما يرى . .
« وجرعت كل ما يشرب ! . »
ويصفق شباب باريس للكلمات . . إنها تلخص شغفهم للمعرفة . .

معرفة كل شيء . . وأى شيء !
شغف القراءة عندهم غريزة .. قراءة أحسن الكتب وأسوأها. أكثرها تطرفاً وأشدها اتزاناً . . فالمهم هو القراءة . . ترفعهم رحلة الكلمات إلى بلزاك . . وموروا . . ومالرو . . أو تهبط بهم مع كتب الجنس والمغامرات !

وعيونهم مفتوحة . . مفتوحة دائماً . فى النهار . . وفى الليل . .

تدخل المعارض . . تعيش مع الألوان . . وتخرج للحياة فى رحلة على ضفاف السين أو فى سيارة صغيرة تطارد شمساً ذابلة حتى الغروب . . ومع الليل تبحث عن نجمة ترقص فى سماء بيجال !

وهم يشربون . . يشربون فنجال القهوة الدافئ فى عجلة الصباح . . وكوب اللبن للغذاء . .

وفى المساء يشربون فى صحة الليل . . وقد تمتد التحية حتى الصباح !

« الحياة قاسية . . ولكن يجب أن نحياها . . ولكى نحياها يجب أن نعيش أنفسنا » ومن أجل هذه المعايشة . . لا يتوقف

الشاب الفرنسى عند عمل . . أو موقف . . إنه يترك نفسه للتجربة . . حياته مركب هو قبطانها ودفتها وراكبها الوحيد !

لقد تخلص من عقدة الخوف والخجل .

إنه يوقف أى عربة فى الطريق ليسافر باحثاً عن رزقه . .

وقد يعمل حمالاً فى ( الهال ) . . أو بائعاً للصور فى ( سان جرمان ) . . يغسل الأكواب فى حانة . . أو درجات كنيسة . . فالمهم أن يعمل . . ويأكل . . ولا يتوقف !

والفتاة الباريسية لا تختلف عنه كثيراً . .

إنها تعيش التجربة . . لأنها تعيش فيها حياتها . . وعندما تجد الشاب المناسب تتحول كل الصور الأخرى إلى دخان . . وقد وجدت الدفء فى بيت بجوار زوج تحبه وثلاثة أطفال وعلاوة ٢٧٠ فرنكا . . تساعدها على شراء ملابسهم ، وتختلس منها هدية عندما تذهب لزيارة أمها العجوز فى الريف . وتشاركها فى رغيف الخبز الطويل !

وتسقط أوراق العام مع شتاء ديسمبر . .

وطفل يولد بلا أم ليضيع فى باريس الجديدة . .

وعاشق تركته حبيبته لتسافر . . وبينهما تسقط آخر أوراق الشتاء ويصبح اللقاء وداعاً . .

ويغنى جيلبرت بيكو . . للطفل الضائع . . والقلوب المعذبة . .

« أيها الصغير . . أيها العصفور بلا ربيع . .

« الدنيا باردة حولك . . وداخل قلبك الصائم . .
« وأنت أيها العاشق . . الوحيد . .
« سافرت حبيبتك . . نحو أقمار جديدة . .
« وتركتك وحيداً . .
« ومع ذلك . . فالمهم . . هو الوردة ! »

ويتردد صوت بيكو .. فى ليل باريس وفى قلوب عشاقها . . وزوارها . .

إنها دعوة حب . . رقيقة. . لمواجهة الحياة . . وللاستمرار.. إن كلمات « لويس أماد » تحاول أن تنفذ إلى مشاعر باريس.. خلال وردة . . ولكنها وردة مسكينة . . تعاند للبقاء . . وردة اقتلعت . . ووضعت بين أسنان الحياة !

إننا نحب فى الليل لنستطيع استقبال نهار جديد !

وابتسم العاشق وهو يطعم حبيبته حبات الكرز . . على أنغام الموسيقى . . ثم يضيف :

« إن الليل مظلوم ، والحب متهم برىء . . والاثنان يعتقد الناس أنهما عندما يجتمعان يكون الشيطان ثالثهما . . لا . . وصدقنى أن كيوبيد يعبث أحياناً فى النهار أضعاف عبثه فى الليل ! »

هل حقًّا أنت مظلوم يا ليل باريس ؟ ! . .

إن المدينة تنام بعين وتبقى متيقظة بالعين الأخرى . . ولكن زوار باريس يعتقدون أنها لا تنام أبداً . . وحياتها ليل مستمر !

آلاف البيوت تنام بعد نشرة الأخبار الأولى فى التليفزيون . . استعداداً لاستقبال نهار مبكر . . ولكن مقاهى سان جرمان وسان ميشيل وحى الهال وبيجال يتصل فيها الليل مع النهار لتعطى ليل باريس هذا الطابع المميز . . وتكسبه شهرته الخالدة ! . .

والفجر سيتسلل ليعيد الحياة إلى النهار الذى مات ولكن الليل لا يريد أن يهزم . . . إن رواده يبقون فى أماكنهم بالمقاهى ينتظرون أول مترو يتحرك . . ويغالبون الإرهاق والنعاس بفنجال القهوة الساخن !

والتعب قد أثقل خطواتى . .

سائق التاكسى يهدئ السرعة إلى جوارى ويغرينى فى صمت بالعودة سريعاً إلى الفراش الدافئ . .

عربة ترش الطريق . .

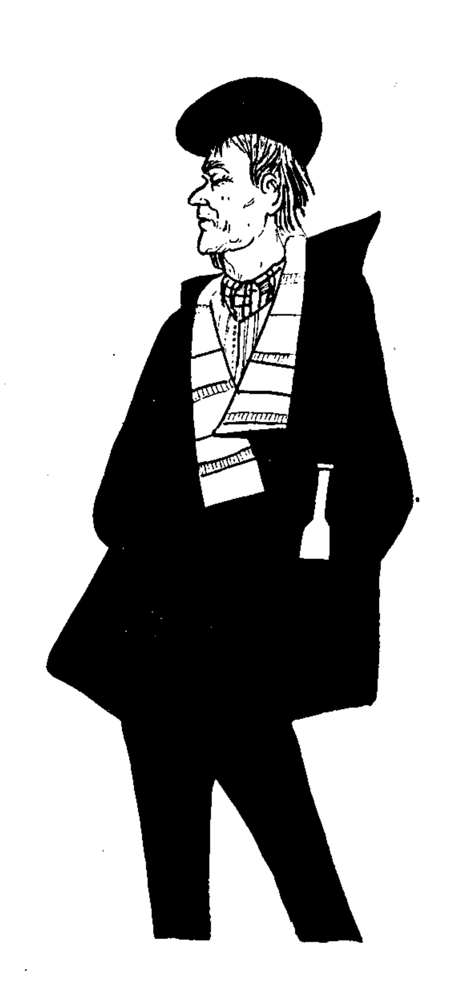
كلب ينهض ويبحث لنفسه عن مكان أوفر دفئاً . .

مخمور يترنح ويصرخ بأعلى صوته :

« يا أصدقائى . . جاء الوقت لأعترف لكم جميعاً فى ش . . ش . . ج . . اعة . . أنى كنت مخطئاً . . ولو أتيحت لى الفرصة للبدء من جديد لن أكرر خطئى . . »

ويتوقف بعض المارة . . وأتوقف معهم . . أنتظر السر الكبير الذى سيبوح به الرجل . .

ويتوقف الرجل هو الآخر . . يستند إلى أقرب عمود نور . .



ويدير النظر حواله يطمئن على جمهور يستمع . . فيضيف :

« لن أعود أبداً إلى شرب الخمر الرديئة ! »

ويخرج زجاجة من جيب معطفه يلقى بها فى الهواء . . لتسقط ويتناثر دويها فى أذنى ! !

وتفتح نافذة وتبدو امرأة منزعجة فى ملابس النوم لا تلبث أن تصرخ فى الرجل :

« هل عدت من جديد إلى عادتك القبيحة . . لماذا لا تبحث لنفسك عن حى آخر تقذف فيه زجاجاتك الفارغة . . أيها الأحمق . . »

ومن الداخل يقول الزوج :

« أغلقى النافذة وعودى يا حبيبتى . . إن النهار أوشك أن يستيقظ ! ! »

وفى مقهى « المونداران » ينادينى صوت صديق :

ـ تعال نودع الليل . .

ـ بل تعال نستقبل النهار الجديد ! . .




# الفصل الخامس عشر

## وداعاً . . لا . . إلى اللقاء !

الأيام تعدو . . وفى الغد ، مع الفجر ، تحملنى الطائرة إلى الوطن . . وفى القلب لهفة العودة . . وفى النفس ذكريات أيامى مع هذه الحسناء التى أمضيت معها شهراً . . الجميلة المتغيرة . . العجوز الشابة . . الغانية المثقفة . . باريس !

وحقيبتى الصغيرة معدة . . راقدة على المنضدة مستسلمة ، ومنتظرة . .

ولكن ما زالت هناك ليلة أعيشها فى باريس ولعل شهر زاد الفرنسية تدخر قصة جديدة ! . .

والليل يحتفل بى . . وتخجل سحبه . . وتترك السماء صافية تتألق فيها نجوم . . إن باريس تحب أن تترك دائماً أثراً شاعرياً فى قلب زائرها .. وها هو ذا القمر يظهر هو الآخر . . إنه احتفال خاص . . للشاب الفنان الذى جاء ليطوف أوربا كلها فتوقف عند باريس ولم يتحرك !

« إن الليلة تليق أن نصعد لها الدرجات إلى كنيسة « الساكريكير » . . ومن هناك نقول لباريس وداعاً . . »

والفكرة تجد صداها فى قلبى ، ليس هناك أروع من قضاء

آخر ساعات ليلتى الأخيرة . . وسط الفنانين الذين يتجمعون هناك كل مساء . .

وأصعد الدرجات فى لهفة . . وزميلتى إلى جوارى تضحك وتقول وسط لهثاتها :

صبراً . إن « الساكريكير » لن يطير . . والرسامين فى انتظارك حتى الصباح . .

وتسبق اللهفة أقدامى . . إلى الميدان الذى سمعت وقرأت عنه . . ميدان الفن . . الذى عاشت فيه أسماء عباقرة الرسم الذين ذهبوا ولابد أن أرواحهم تهيم فى المكان وترعاه . .

إن الدرجات ترتفع بى . . وخيالى يحلق . .

هناك فى القمة سألتقى « بتولوز لوترك » القزم . . صاحب الدم العريق . . والنفس المعذبة المثقلة بالجروح . . الفنان الذى أحب ما رسمه . . ورسم ما أحبه . نساء الليل . . بنات الطاحونة الحمراء . . وفتيات البارات . . إنه لم يحس بالراحة إلا وسط هذا الجو الذى خجل منه الآخرون . . أما هو فوجد فيه الدواء لجروحه والعلاج لعقدته . . إنه وسط العالم الخارجى والناس كان قزماً مشوهاً لا يثير إلا الرثاء أما فى « المولان روج » . . وفى ميدان « الساكريكير » و « مونمارتر » كان الفنان العبقرى الغريب ، الذى أحبه الجميع وشاركوه فى الخبز والنبيذ والليل !..

ولقد ذهب تولوز لوترك ! . ترك اسمه فى التاريخ . . ولابد

أن روحه تعود هائمة لتقف هناك فى قمة « الساكريكير » تتأمل الفنانين وهم يرسمون . .

ويطير بى الخيال إلى « موديليانى » وصديقه « أوترللو » كلاهما كان من رواد « الساكريكير » أيضاً . . وكلاهما ترك بصماته فى مقاهى الميدان العجوز . . لقد اشتركا فى البؤس . . وفى الرسم . . والخمر . . والليل . . واختلفا فى شىء واحد . .

« موديليانى » كان يعشق النساء . . وأوترللو كان يعشق الشجر ! وكان أجمل ما رسمه موديليانى النساء . . وأجمل ما صوره أوترللو . . الشجر !

وكلاهما مات . . ولكن الإحساس يخالجنى بأننى سألتقى بهما بعد لحظات . .

وأفيق من خواطرى . . وزميلتى تقودنى إلى مقهى قريب نلتقط فيه أنفاسنا . .

إن بيكاسو نفسه كان يجلس هنا . .

قالتها زميلتى فى اقتناع . . وهز صاحب المقهى العجوز رأسه موافقاً ، وهو يضع أمامنا الطلبات ويدخل فى الحديث بلا دعوة :

— كان شابًّا وسيما وفقيراً فى هذا الوقت . . شاحب الوجه مسترسل الشعر . . مغرم بالبؤساء ولاعبى السيرك . . وكان مرسمه فى « باتولافوار » ولكنه كان يأتى هنا ليرسم ويلتقى بزملائه . .

ويتنهد الرجل ويضيف :

« إنه لم يعد يأتى إلى هنا . . إنه مشغول الآن بفنه وشهرته وقصوره . . وسمعت أن كتاب زوجته "فرانسواز جيلو" عنه قد آلمه كثيراً . . هل تعتقد أنه من الصواب يا سيدى أن تذيع زوجة أسرار زوجها بهذه الطريقة ؟ ! »

وكنت لا أزال أفكر فى السؤال عندما تبرع الرجل بالإجابة :

« أنا أعتقد أنها الرغبة فى الانتقام . . لقد ضاقت نفسها عندما وجدته منصرفاً عنها إلى فنه وموديلاته الجميلات . .

هل أنت فنان . . . حسناً إذن أنت معى أن بيكاسو مظلوم » ! !

ويقتحم علينا الحديث . . صوت غريب . . صوت صدئ ونلتفت إلى مغنية ، يتوهج شعرها الأحمر تحت حلقات النور والدخان . . وتردد أغانى قديمة . . أغانى « العصر الجميل » كما يلقبونه . . إنها للوهلة الأولى ، تثير الضيق . . وترهق الأذن ولكن بعد لحظات ، تتعودها النفس . . كلماتها الساخرة أحياناً . . أو ذات المعانى المتوارية الملائمة لجو المكان وتاريخه . .

وتقول زميلتى :

« إنهم هنا يعتزون بمغنيتهم اعتزازهم بالنبيذ المعتق . . ولا أحد يعرف سنها الحقيقى . . ولكنها تردد منذ نصف قرن أنها فى الثلاثين ! »

والمغنية تتجول بين الموائد . . وبجوارها عازف الجيتار . . يصاحبها . . ويردد بعض الكلمات ويستحث الرواد !

ونهض نغادر المقهى . . لنتجول فى الميدان حوله . . وألتقى بعشرات الفنانين وهم يرسمون . . .

وتصدمنى المفاجأة . .

وتغلبنى المرارة . .

إن ما أراه حولى يحزننى . .

لقد تحول الفن إلى استعراض كبير . . أو إلى لعبة لجذب انتباه السياح . .

عشرات الرسامين هنا وهناك كأنهم فى مباراة بعضهم يستعرض سرعته ومهارته فى الرسم . . والبعض الآخر يفرد رسومه ولوحاته على سور الميدان أو حائط مقهى . . ومعظمها لوحات رديئة متعجلة استعار أصحابها أساليب بعض الفنانين المعروفين بلا إذن أو استئذان . . أما السلعة المرغوبة فى هذا السوق الفنى . . فهى رسم « البورتريه » تصوير الوجه . . فهو لا يحتاج إلا إلى كرسى يجلس عليه « الزبون » . . وورقة بيضاء وقطعة من الفحم يكتمل بها الرسم بسرعة . . وغالباً ما يعمد الرسام إلى إحضار « نموذجه » الخاص . . يرسمه أمام المارة ، ويستخدمه كطعم !

وتنهدت . . والتفتت إلى زميلتى تسأل :

ـ مالك منقبض الأسارير . . ألا يعجبك ما تراه ؟ . .

هل أقول لها إنى جئت إلى مونمارتر « والساكريكير » لألتقى بتولوز لوترك . . وموديليانى . . وأوترللو . . ولكن حتى أرواحهم رحلت عن المكان لتتركه لهذه الغربان الملونة ؟ ! . .

هل أقول لها إنى أحلم بهؤلاء العباقرة الذين دفعوا حياتهم كلها لتحقيق الكمال الفنى ؟ !

هل أقول لها إن « موديليانى » مات من الجوع . . ليحتفظ بكرامة فنه ؟ !

و « جوجان » رفض أن يبيع حياته للزيف والنفاق . . فترك بلده وأهله . . ومات وحيداً مشرّداً .. ولكن فى ابتسامة رضاء كبيرة لأنه باع كل ما يملك واشترى نفسه ؟ !

وهل أقول لها . . إنى أحلم بلقاء رجل مجنون مثل فان جوخ يطارد الشمس بدلاً من السياح . . وعندما لا يجد هدية يقدمها لحبيبته يقطع لها أذنه عربوناً للحب ؟ !

ولكنه حديث يؤلم النفس . . وزميلتى سمعت بعضه . . وتدرك البعض الآخر . . وابتسامتها تضىء بالأمل وهى تقول :

— إن ما تراه ليس حقيقة الساكريكير . . ورسامى مونمارتر ليسوا هؤلاء « الغربان الملونة » كما تلقبهم . . والذين لا هم لهم إلا مطاردة السياح . . إن فى داخل هذه البيوت الصامتة حولنا بعض هؤلاء العباقرة الصامتين . . حياتهم عميقة وفنهم أصيل . . إن السياح لا يدخلون هذه البيوت لأنهم يشترون أول ما يصادفهم.

وبرفق كانت زميلتى تقودنى لنصعد السلم الخشبى إلى مراسم زملائها الفنانين . .

وهدأت نفسى أمام الفن الأصيل . . وارتاح بصرى للألوان والمعانى فى اللوحات . .

والتف حولى الجميع فى ترحيب . .

وقلت لزميلتى هامساً أن تُفَهِّمهم أنى لست سوى فنان مثلهم ولا أملك أن أشترى فنهم !

وكانت همستى مكشوفة . .

وقال لى رسام عجوز فى حماس وهو يفرد أمامى لوحاته : « نحن لا نبيع الفن وإنما نشترى التقدير » . .

وكان المرسم يمتلىء برائحة الألوان والأصباغ . . رائحة أحبها . . وتسكرنى . .

وحديث الفن يتصل . . والعيون تلمع . . والأيدى تتحرك..

وفنانة تمسك قلماً وترسمنى . .

وأحس بالنشوة والحرج . .

أناملها على الورق تلمس وجهى !

لقد تعودت دائماً أن أرسم أنا . .

هل هكذا يحس الذين يجلسون للرسم ؟ . .

إن باريس لم تسكرنى طوال الشهر الذى أمضيته معها . . بخمرها وسهراتها ولياليها . .

ولكن الفن وحده قادر على إسكارى . .

رائحة اللون الفيروزى . . على لوحة فى الحائط أمامى تدغدغ حواسى . .

وصوت جرة القلم على الورق . .

وحفيف الفرشاة . .

وأجد نفسى أنا أيضاً أنهض لأرسم فى حماس . .
وساعة قديمة على منضدة تشير إلى منتصف الليل . .
وتنحنى علىّ زميلتى وتقول :
لا تصدق الساعة . . إن النهار أوشك أن يظهر . .
ويقول الرسام العجوز :
إن ساعتى مثلى تعودت ألا تحسب سوى لحظات السعادة ! . .
— وأنا مثل عقاربها توقفت عند منتصف الليل . .
وقالت زميلتى هامسة :
— هل أعدنا ثقتك بمونمارتر والساكريكير ؟ !
— بل أعدتم ثقتى بالفن . . بكم . . وبنفسى . .
وقلت للفنانة التى رسمت صورتى :
— هل أستطيع أن أحصل عليها ؟ !
— إنها ليست كاملة . . من عادتى أن أنهى الصورة فى جلستين . الليلة رسمت وجهك وفى المرة القادمة أرسم نفسيتك !
— ولكنى أسافر بعد ساعات ؟
— إذن ستظل صورتك وجهاً بلا نفس حتى تعود ونعرفك أكثر !
واقترب منى الرسام العجوز ممسكاً باللوحة التى أرسمها . . وهو يسألنى :
— ما هو عنوانها ؟ ! . .

ـ إنها انطباعى عن باريس . .

وحملها الرجل إلى الحائط . . ووضعها بجوار لوحاته وهو يثبتها فى عناية وتقدير . .

وكنت أقول له :

ـ ولكنها لوحة ناقصة ! . .

وسبقت ابتسامة الرجل كلماته وهو يقول :

ـ إذن ستعود يوماً لتكملها . . سننتظرك !

* * *

مطار أورلى . . .

الصوت الدافئ يعلن عن قيام طائرتى . .

ـ وداعاً . . .

ـ إن باريس لا تحب الوداع . . وإنما إلى اللقاء ! . .

# فهرس

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٩

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٦٩/٢٤٤٠

الكتاب القادم

إقرأ

# أسنانك ... وكيف تحافظ عليها

الدكتور فاروق مرشد

## دار المعارف بمصر

تقدم للمبتدئين فى تعلم اللغة الإنجليزية وتلاميذ المدارس والمهتمين بشئون التعليم

## THE ALL AROUND LIBRARY

تأليف : بهية كرم ومرسى سعدالدين ونصيف إسطفانوس وحنامرقص

مجموعة كتب للقراءة الحرة باللغة الإنجليزية بأسلوب سهل ممتع تعين الطالب على استيعاب هذه اللغه وتحبب إليه القراءة بها وتشجعه على الاستزادة منها .

1. Pharaonic Stories
2. Chinese Stories
3. Arabian Nights Stories
4. Adventure Tales
5. Three Greek Plays
6. One - Act Plays
7. Russian Stories
8. Italian Stories
9. Stories from Shakespeare
10. Egyptian Stories
11. Folk Tales
12. Pastime

ثمن النسخة من كل كتاب ٦ قروش